

جامعـــة الأزهـــر
كليـــة أصـــول الديـــن
والدعوة الإسلاميـة بالمنوفيـة

المصطلحات الصوفية
ومدى تطبيقاتها في تفسير روح المعاني
للإمام الألوسي(المتوفى: ١٢٧٠هـ)
(دراســة تحليليـــة)

إعداد الدكتور

محمد محمد بيومي البربري

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق
جامعة الأزهر - مصر

المصطلحات الصوفية ومدى تطبيقاتها في تفسير روح المعاني للإمام الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) (دراسة تحليلية)

محمد محمد بيومي البربري
قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، بدسوق - جامعة الأزهر، مصر
البريد الإلكتروني MohamedBayoumi. 2230 @azhar.edu.eg

ملخص البحث:

هذا البحث إحدى المحاولات في التصوف الإسلامي إذ أنه يدرس المصطلحات الصوفية ومدى تطبيقاتها في تفسير (روح المعاني) للعلامة الألوسي مما يؤكد على مكانة المصطلح الصوفي عنده، وفهم معاني التصوف الحقيقي فهماً صحيحا بعيداً عن شطحات المتصوفة.

ويهدف البحث: إلى بيان مفهوم المصطلحات عند الإمام (الألوسي) أنه مازال بكراً فآثرت أن يكون هذا البحث قائماً على الكشف عن تلك المصطلحات وتحليليها تحليلاً دقيقاً..

والمنهج المعتمد في البحث: هو المنهج التاريخي في بيان أقوال السادة الصوفية، والمنهج التحليلي في دراسة القضايا المتعلقة بالبحث مثل مصطلح (القبض والبسط والجمع والفرق والبقاء والفناء والتجلي...) وغيرها من المصطلحات التي يتضمنها تفسير الإمام الألوسي (رحمه الله).

من أهم نتائج البحث: مكانة الإمام الألوسي (رحمه الله) من بين سائر المفسرين في أنه أشعري المذهب صوفي بحت، يستخدم تلك المصطلحات في تفسيره المشهور؛ للدلالة على مكانة المصطلح الصوفي وفهم معاني التصوف الحقيقي فهماً صحيحاً بعيداً عن شطحات المتصوفة.

الكلمات المفتاحية: مصطلح – الألوسي – تفسيره – مكانة – الصوفية.

Sufi Terms and the Extent of their Applications in the Interpretation of the Spirit of Meanings of Imam Al-Alusi (Deceased: 1270 AH): (Analytical Study)

Mohamed Mohamed Bayoumi Al-Barbari
Department of Creed and Philosophy, College of Islamic and Arabic Studies for Boys, Disouq - Al-Azhar University, Egypt
E-mail: MohamedBayoumi.2230@azhar.edu.eg

Abstract:

This research is one of the attempts in Islamic mysticism, as it studies Sufi terms and the extent of their applications in the interpretation of (the spirit of meanings) by the sign Al-Alusi, which confirms the status of the term Sufi with him, and a correct understanding of the meanings of real Sufism away from the **mysticism.**

The research aims: to show that the concept of terminology according to Imam (Al-Alusi) is still a virgin, so I chose to have this research based on revealing those terms and analyzing them carefully.

The method adopted in the research: is the historical method in explaining the sayings of the Sufi masters, and the analytical method in studying the issues related to the research such as the terms arrest, numeration, combination, difference, survival, annihilation, manifestation and other terms included in the interpretation of Imam Al-Alusi, may God have mercy on him.

Among the most important results of the research: the position of Imam Al-Alusi, may God have mercy on him, among the other commentators, in that he is an Ash'ari of the purely Sufi school, using these terms in his famous interpretation; To denote the status of the term mysticism and a correct understanding of the meanings of real Sufism, away from the inflections of the Sufis.

Keywords: the term Al-Alusi, its interpretation, the status of Sufism.



المُقَدِّمَةُ

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ لا والد ولا ولد، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ثم أما بعد،،

فإن علم التصوف من أجل العلوم الإسلامية على الإطلاق، ومن ثم فله مكانة عظيمة في قلوب العامة والخاصة؛ لأنه يتعلق بالأخلاق الإسلامية التي بعث من أجلها الرسول (ﷺ)، وعلم التصوف علم يعتمد على القلوب وعمارتها بالإيمان والتقوى، فهو مأخوذ من الصفاء والوفاء والتخلق بأخلاق المصطفى (ﷺ) ولقد استخدم السادة الصوفية مصطلحات عدة في علومهم العديدة تعبر عن معنى خاص عندهم ولا يفهم معناها إلا لمن انشغل بعلومهم ومعارفهم وهم أهل الحقيقة منهم، وإن كان لي أن أدلو بدلوي فأقول: إن السادة الصوفية لهم مصطلحات كما لأهل الهندسة اصطلاحات ولأهل اللغة اصطلاحاتها وللمتكلمين والفلاسفة اصطلاحاتهم أيضا.

فكل فن من الفنون له مصطلحاته الخاصة به لا يفهم معناها إلا لمن له باع كبير في هذا العلم و لايدرك معناها إلا من خاض غماره، فالمصطلح الصوفي له دلالته الخاصة به لا يفهمها عوام الناس بل يفهمها السادة الصوفية الذين شغلوا أنفسهم بهذا العلم علماً وعملا، أما من لم يكن له علم بهذه المصطلحات فهو لا يفهم معناها، فهو كما يحكى عن السمعاني حيث قال: كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة، وشيخهم في عصره، فقيها صالحا دينا خيرا، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة، تفقه على المخرمي، وصحب الشيخ حمادا

الدباس، وكان يسكن بباب الأزج في مدرسة بنيت له، مضينا لزيارته، فخرج وقعد بين أصحابه، وختموا القرآن، فألقى درسا ما فهمت منه شيئا، وأعجب من ذلك أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلهم فهموا لإلفهم بكلامه وعبارته"[١]. فهو لم يفهم شيئاً وقد أقرّ بذلك صوفي قديم حيث أنشد قائلاً ".

علم التصوف علم لا نفاد له   علم سنى سماوى ربوبى...

فيه الفوائد للأرباب يعرفها   أهل الجزالة والصنع الخصوصى[٢]

والذي أميل إليه أن العلامة الألوسي في تفسيره هذا صوفي بحت بعيد عن مصطلحات الفلاسفة وغيرهم من المفكرين، فله تفسيراته الشهيرة لمصطلحات القوم فقد فهمها وعلمها.

أهمية الموضوع

يُعد الكشف عن المصطلحات الصوفية في كتب التفاسير أمراً مهماً في إطار توجه أصحابها وتحديد منهجهم العقدي، ومن هؤلاء الأعلام الإمام (الألوسي) الذي استخدم كثيراً من تلك المصطلحات وذلك من خلال تفسيره (روح المعاني) المشهور وهذا مما دفعني لاختار هذا الموضوع الذي جعلته بعنوان {المصطلحات الصوفية وتطبيقاتها في تفسير روح المعاني للإمام الألوسي (المتوفى سنة: ١٢٧٠هـ) دراسة تحليلية.

---

(١) سير أعلام النبلاء، (٢٠/٤٤١)، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٨٨ المؤلف: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (المتوفى: ٣٨٠هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

أسباب اختيار الموضوع

أولاً: إن علم التصوف من أجل العلوم؛ لأنه يتعلق بالقلوب وبإصلاحها من الهواجس، وطهارتها من الأدران والأحقاد؛ مما يؤهلها لمرضاة الله تعالى.

ثانياً: إن دلالة المصطلح الصوفي لا يعرفها إلا أهل الفن المتخصصون وذلك نظراً؛ لأن معاني ألفاظهم مبهمة على غيرهم؛ ولعل ذلك غيرة منهم على أسرارهم وفنونهم.

ثالثاً: إظهار مكانة الإمام (الألوسي) ومنزلته من بين المفسرين واستخدامه كثيراً من مصطلحات السادة الصوفية عند تفسيره للآيات القرآنية التي تحتوي على تلك المعاني الباطنية.

رابعاً: إن دراسة المصطلحات الصوفية عند الإمام (الألوسي) ما زال بكراً فآثرت أن يكون هذا البحث قائماً على الكشف عن تلك المصطلحات وتحليليها تحليلاً دقيقاً.

المنهج المستخدم

استخدم الباحث المنهج الوصفي وكذا المنهج التحليلي و"هو عزل صفات الشيء أو عناصره بعضها عن بعض بقصد معرفتها وإدراك كل منها إدراكاً كاملاً"(١)

وقد استدعت الدراسة تقسيمه إلى مقدمة اشتملت على أهمية الموضوع وأسباب اختياره والمنهج المتبع، وتمهيد اشتمل على: التعريف بالإمام (الألوسي) بإيجاز وأربعة مباحث جاءت على النحو التالي:

(١) المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، الدكتور/عوض الله حجازي، دار الطباعة المحمدية، ط: ٦ صـ ٢٤٦.

المبحث الأول: مصطلحات القبض والبسط والهيبة والأنس كما اعتبرها الإمام الألوسي.

المبحث الثاني: مصطلحات الجمع والفرق والبقاء والفناء كما اعتبرها الإمام الألوسي.

المبحث الثالث: مصطلحات الغيبة والحضور والمحو والإثبات كما اعتبرها الإمام الألوسي.

المبحث الرابع: مصطلحات التجلي والتكوين والتمكين والقرب والبعد. كما اعتبرها الإمام الألوسي.

وخاتمة: اشتملت على أهم نتائج البحث وأعقبها فهرس ثبت المصادر والمراجع، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم: {**وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾**}[(١)].

---

(١) سورة هود من الآية: ٨٨.



التعريف بالإمام (الألوسي)

الإمام الألوسي (رحمه الله) عالم مصلح مجدد، متنوع المعارف والعلوم لايستطيع المتحدث عنه في شخصيته وعلمه أن يقف على جانب واحد فقط، فهو عالم متبحر في كل العلوم الإسلامية حتى "قيل أستاذ الكل في الكل"[(١)] .

اسمه ومكانته من بين المفسرين

هو نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الآلوسي: واعظ فقيه، باحث، من أعلام الأسرة الآلوسية في العراق، ولد ونشأ ببغداد، وولي القضاء في بلاد متعددة، منها الحلة وترك المناصب، قال الأثري في وصفه: كان عقله أكبر من علمه، وعلمه أبلغ من إنشائه، وإنشاؤه أمتن من نظمه. وكان جوادا وفيا، زاهدا، حلو المفاكهة، سمح الخلق"[(٢)] ، ويقول عنه أيضاً الإمام الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون "وجملة القول: فروح المعاني للعلاَّمة الألوسي ليس إلا موسوعة تفسيرية قيِّمة. جمعت جُلَّ ما قاله علماء التفسير الذين تقدَّموا عليه، مع النقد الحر، والترجيح الذي يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة، وهو وإن كان يستطرد إلى نواح علمية مختلفة، مع توسع يكاد يخرجه

---

(١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، المؤلف: نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الآلوسي (المتوفى: ١٣١٧ هـ) قدم له: علي السيد صبح المدني (رحمه الله) ج١، صـ ٥٩، الناشر: مطبعة المدني، عام النشر: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٢) الأعلام، ج٨، صـ ٤٢، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦ هـ): دار العلم للملايين ـ الطبعة: الخامسة عشر – أيار/مايو ٢٠٠٢م.

عن مهمته كمفسِّر إلا أنه متزن في كل ما يتكلم فيه، مما يشهد له بغزارة العلم على اختلاف نواحيه، وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه، فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء"[(١)].

ومن هنا فالإمام الألوسي (رحمه الله) موسوعة علمية كبيرة يشرب من معينها الداني والقريب وكتابه المشهور (بروح المعاني) يعد موسوعة فريدة تجمع آراء الفرق الثلاث (السلفية و المتكلمين والصوفية) كما يقول الإمام بدر الدين الحلبي "جاء الألوسي من متأخري أهل العراق فأخذ تفسيره من تفسير الإمام (فخري الدين) إلا أنه حذف منه كثيراً من الزوائد وأضاف إليه وأحسن غاية الإحسان شيئاً من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم وإن لم يميز بين ما قوى سنده من هذه الأقاويل وما وهى، فبقي في الأمر بعض لبس و إشكال وأضاف إليه جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة، فلم يكتف (رحمه الله) بجمع تأويلات المتكلمين التي تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم وتطبيقها على ما أدتهم إليه عقولهم منها عملاً بقاعدتهم المشهورة عندهم من وجوب تأويل النقل إذا عارض العقل حتى يرجع إلى العقل، فأضاف إلى ذلك تأويلات المتصوفة التي صرفوا بها القرآن عن ظاهرة إلى معان لا تدل الألفاظ العربية عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس، فجاء كتابه جامعاً للفرق الثلاث – السلفية وطريقة المتكلمين وطريقة الصوفية"[(٢)].

---

(١) التفسير والمفسرون، المؤلف: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، ٢٥٧/١، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.

(٢) التعليم والإرشاد، تأليف السيد محمد بدر الدين الحلبي، الدبعة الأولى، ١٣٢٤هـ، ١٩٠٦م، صـ٩١.

من تصانيفه:

هناك تصانيف كثيرة للإمام الألوسي ذكرها محمد بهجت الأثري في كتابه (أعلام العراق) حيث اشتمل هذا المؤلف على كتب الإمام الألوسي وتصانيفه المشهورة التي منها:

١- روح المعاني – وهو أعظم مؤلفاته شأناً وأجلها قدراً.

٢- الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية.

٣- نهج السلامة إلى مباحث الإمامة رد على الشيعة.

٤- الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية.

٥- النفحات القدسية في الرد على الإمامية.

٦- شرح البرهان في طاعة السلطان. ٧- شرح سلم العروج في المنطق"[(١)] .

وفاته:

توفي الإمام في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هجرية، ١٨٥٤م) ودُفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخيى في الكرخ، فــ (رضي الله عنه) وأرضاه"[(٢)] ، ومن هنا فالإمام الألوسي (رحمه الله) قد أثنى عليه العلماء والمفسرون من بعده حيث يقول الذهبي (رحمه الله) "وكان (رحمه الله) عالماً باختلاف المذاهب، مطلعاً على الملل والنحل، سلَفي الاعتقاد، شافعي المذهب، إلا أنه فى كثير من المسائل يُقلِّد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان (رضي الله عنه)، وكان فى آخر أمره يميل إلى الاجتهاد. ولقد خلَّف (رحمه الله) للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة، فمن ذلك تفسيره لكتاب الله، وهو الذي نحن بصدده الآن"[(٣)] .

---

(١) أعلام العراق، كتاب تاريخي أدبي انتقادي، يتضمن سيرة الإمام الألوسي الكبير، تصنيف/ محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، سنة ١٣٤٥هـ، صـ ٢٩، ٣٠.

(٢) الأعلام، الزركلي الدمشقي (١٧٦/٧)، أعلام العراق، صـ٢٦، التفسير والمفسرون، للذهبي (٢٥٣/١).

(٣) التفسير والمفسرون، للذهبي (٢٥٣/١).

توطئة:

مما لا شك فيه أن المصطلحات الصوفية تعتمد على الخاطر أكثر من غيره من المدركات الظاهرة، مما يؤكد أن لها قيمة علمية كبيرة في نفوس أصحابها، وقد انفرد بها السادة الصوفية من باب التسهيل ومن باب التقريب للفهم والكشف عنها.

يقول الإمام القشيري: "اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم"(١).

ومن هنا فالمصطلح الصوفي يكشف لنا مدى تمسك السادة الصوفية بأسرارهم، فهذه المعاني لم تخرج إلا عن طريقي (المريد والشيخ)، وذلك في حالتي التلقي، وقد استخدم الإمام (الألوسي) في تفسيره المعروف (بروح المعاني) كثيراً من مصطلحات الصوفية وذلك عند تفسيره للآيات التي ينجلي فيها معاني تلك المصطلحات، وعليه فإن منهجي في هذه الدراسة سيقوم على

---

(١) الرسالة القشيرية، صـ ١٥٠، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥ هـ) تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف الناشر: دار المعارف، القاهرة.

تقسيم تلك المصطلحات، والتعريف بها في اللغة والاصطلاح مع تقديم دلالة المصطلح عند الصوفية أولاً، ثم تعريفه وتحليله عند الإمام (الألوسي) وذلك في إطار رؤية تطبيقية على تفسيره، ثم ربطه بالمعنى الموجود عند السادة الصوفية حتى تكتمل الفائدة، وتعم..

المبحث الأول

مصطلحات القبض والبسط والهيبة والأنس كما اعتبرها الإمام الألوسي

أولاً: القبض في اللغة: جاء في لسان العرب لابن منظور أن القبض: خلاف البسط، قبضه يقبضه قبضا وقبضه؛ الأخيرة والانقباض: خلاف الانبساط، وقد انقبض وتقبض وانقبض الشيء: صار مقبوضا وتقبضت الجلدة في النار أي انزوت، وفي أسماء الله تعالى: القابض، هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ويقبض الأرواح عند الممات"[(١)] فالقبض معناه الإمساك بلطف، وحكمة وهو بخلاف البسط الذي معناه العطاء بكثرة وبحكمة إلهية يقدرها الخالق كيف يشاء حسب علمه وإرادته.

والقبض في الاصطلاح الصوفي: يراد به المنع الذي يرد على الصوفي، وهو حال من أحوالهم و "هو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب- من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج- فالأحوال (مواهب) فى حين أن (المقامات) مكاسب- أي تحصل بالاكتساب والقبض "يكون بعد ترقى العبد عن حال الخوف"[(٢)]، والذي أذهب إليه أن القبض والبسط حالان يردان على قلب الصوفي لكي يترقى الإنسان ويدخل فيه بعد حال الخوف.

(١) لسان العرب، فصل القاف، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١ هـ) (٢١٣/٧) الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

(٢) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، صـ٥١٣، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر.

يقول الجرجاني: "والفرق بينهما: أن الخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب على قلب العارف عن وارد غيبي"[(١)] والصحيح أن القبض يرد على قلوب العارفين بعد خوفهم وخشيتهم من الله تعالى وحده دون سواه.

الفرق بين القبض والمصطلحات الأخرى عند الصوفية

يفرق السادة الصوفية بين القبض والخوف والرجاء والبسط، فيقول الإمام القشيري "ومن الفصل بين القبض والخوف والبسط والرجاء أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل، إما أن يخاف فوت محبوب أو هجوم محذور، وكذلك الرجاء إنما يكون بتأميل محبوب في المستقبل أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المستأنف. وأما القبض: فلمعني حاصل في الوقت، وكذلك البسط فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله، ثم تتفاوت نعوتهم في القبض والبسط على حسب تفاوتهم في أحوالهم"[(٢)]، وإن كان لي أن أدلو بدلوي فأقول: إن القبض يحصل في الوقت ذاته بخلاف الخوف والرجاء فإنهما لا يتحقق فيهما هذا الحصول في ذات الوقت، فالقبض يتفاوت من صوفي لآخر حسب درجاتهم في الصفاء والنقاء القلبي، هذا هو معنى تلك المصطلحات عند السادة الصوفية، فما هو موقف الشيخ الألوسي منها؟.

---

(١) كتاب التعريفات، صـ١٧١، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م.

(٢) الرسالة القشيرية، للقشيري (١٥٦/١)

مصطلح القبض عند الإمام الألوسي

أقول وبالله التوفيق أن العلامة (الألوسي) عليه رضوان الله قد استخدم هذا المصطلح في قوله: "القبض والبسط الأول للمشتاقين والثاني للعارفين، والمشهور أن القبض والبسط حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء فالقبض للعارف كالخوف للمستأمن، والفرق بينهما أن الخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب على قلب العارف من وارد غيبي وكان الأول من آثار الجلال والثاني من آثار الجمال"[(١)] والذي أميل إليه أن الإمام الألوسي (رحمه الله) قد جعل القبض يحصل للعارفين كالمشتاق إليه والقبض والبسط يأتي كلاً منهما بعد مقامي (الخوف والرجاء)، وأرى أنه لا يختلف عمن سبقه من السادة الصوفية فهو قد سار معهم حذو القذة بالقذة، والقدم بالقدم دون فرق أو زيادة.

وقد يستخدم الإمام قدس الله سره الإشارة التي يستخدمها السادة الصوفية أو ما يعرف بالرمز عندهم فيقول عند تفسير قول الله تعالى: {وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ}[(٢)] "يحتمل أن يكون إشارة إلى قلب العارف في حالتي القبض والبسط فكأنه قيل: وله ما سكن في قلوب العارفين المنقبضة والمنبسطة من آثار التجليات فلا تلتفت في الحالتين إلى سواه عز شأنه"[(٣)] وعليه فالقبض يسكن في القلب عند الصوفي فيجد التجلي من مولاه فلايلتفت إلى غيره ، وفي موضع

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (٥٥٦/١) المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ .

(٢) سورة الأنعام من الآية: ١٣.

(٣) روح المعاني، للألوسي، (١٢٢/٤).

آخر وصف القبض حين قال: "كثيرًا ما يمتحن السالك بالقبض والبسط فينبغي له التثبت في كل عما يحطه عن درجته، ولعل فتنة البسط أشد من فتنة القبض فليتحفظ هناك أشد تحفظ"[1]، وهكذا نرى الشيخ يستعمل التفسير الرمزي كما رأينا قوله في الآية الكريمة السابقة.

ثانياً مصطلح البسط في اللغة

أما في المعاجم فتأتي معنى الكلمة "البسط في علم الحساب العدد الأعلى في الكسر الاعتيادي (البسطاء) من الآذان العريضة العظيمة و (البسطة) الزيادة، وفي التنزيل العزيز: {وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ}[2] والسعة ومن الظباء والنساء الحسنة الجسم الناعمة والفرنية وهي خبزة من دقيق ولبن وبيض وسكر"[3]، فالبسط هو السعة في العطاء والصحة في البدن والزيادة والنماء، يقول الراغب "والبساط: الأرض المتسعة وبسيط الأرض: مبسوطه"[4] ويقال: "بسط الشيء نشره وتوسعه فتارة يتصور منه الأمران وتارة يتصور منه أحدهما ويقال بسط الثوب نشره ومنه البساط وذلك اسم لكل مبسوط"[5]، ومن

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٥٤/٩).

(٢) سورة البقرة من الآية: ٢٤٧.

(٣) المعجم الوسيط، باب الباء، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/أحمد الزيات/حامد عبد القادر/محمد النجار) (٥٦/١) الناشر: دار الدعوة.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص١٢٣، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.

(٥) الموسوعة القرآنية، (٥٣/٨) المؤلف: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: ١٤١٤هـ) الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥هـ.

خلال ما سبق نجد أن البسط بمعنى السعة وهو ضد القبض ويراد بمصطلح البسط الصوفي هو سعة في القلب وانشراح في الصدر وعلامته التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود.

البسط في اصطلاح الصوفية:

حديثا الآن عن البسط وما قيل في شأنه، لنقرر بعد ذلك ما ذكره الألوسي فيه وما هو كلامه ومدى الاتفاق والخلاف في العبارات بينه وبينهم؟ على آية حال فإن "البسط، عبارة عن حال الرجاء، والقبض عبارة عن حال الخوف على أن الخوف والرجاء من أحوال المبتدئين، أو لمن هو فى مقام "المحبة العامة"، بخلاف القبض والبسط، فهما حالان لمن ترقى عن مقام "المحبة العامة" ونزل بدايات مقام "المحبة الخاصة"[(١)].

والبسط يراد به المحبة الخالصة التي لا يشوبها رياء أو نفاق أو ما شابه ذلك من الأمراض الباطنية، فهما بعيدان كل البعد عن الصوفي؛ لذا قال بعض الصوفية " قف على البساط وإياك والانبساط وقد عد أهل التحقيق مطلق القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه؛ لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه في الحقيقة فقر وضر"[(٢)] والصحيح أن البسط يعتبر الاستعانة بالمنعم؛ لأنه من أجل النعم على بعض عباده باعتبار كون العبد فقيراً إلى عفو مولاه.

---

(١) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المؤلف: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، صـــ٨٢.

(٢) الرسالة القشيرية، للقشيري (١/١٥٧).

البسط عند الألوسي.

وبعد استعراضنا لموقف السادة الصوفية من حال البسط نصل الآن إلى رأي شيخنا الألوسي فماذا قال في البسط؟ هذا ما سنوضحه على الأسطر التالية، البسط عند الإمام الألوسي قدس الله سره لا يختلف معناه عند السادة الصوفية، فالشيخ عند تفسير قول الله تعالى: {وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ}[(١)] قال: "فيه إشارة للمشايخ كيف يكونون مع المريدين أي لا يبخل على المريد بنشر فضائل المعرفة وحقائق القربة ولا تذكر شيئا لا يتحمل فيهلك وكن بين بين"[(٢)] والصحيح أن البسط يكون بين المريد والشيخ، فالشيخ يبسط علمه على مريده وبينهما قرب إلا أن القرب بينه وبين مريديه (بين بين)، أي توسط دون إفراط أو تفريط، والبسط عند الشيخ يراد به "مطلق المد، وإذا استعمل في اليد واللسان كان كناية عما ذكر"[(٣)] والباسط من العباد كما يقول الغزالي هو "من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم فتارة يبسط قلوب العباد بما يذكرهم من آلاء الله ، ونعمائه وتارة يقبضها بما ينذرهم به من جلال الله وكبريائه وفنون عذابه وبلائه وانتقامه من أعدائه"[(٤)].

وجملة القول: إن مصطلحي (القبض والبسط) من مصطلحات الصوفية التي استخدموها في عباراتهم وفنونهم، ولا يفهمها إلا الخواص، أما العوام فهم في

---

(١) سورة الإسراء، من الآية : ٢٩.

(٢) روح المعاني، للألوسي، (١١٩/٨).

(٣)المصدر السابق، (٢٥٦/٣).

(٤) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ص٨٨، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي – قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

منأى عن فهم هذه المصطلحات، وقد رأينا الإمام الألوسي عليه الرضوان دائماً يذكر هذه المصطلحات في تفسيره (روح المعاني) ليكون القارئ على بينة من فهم الآية أو النص القرآني على نحو صوفي بحت.

ثالثاً: مصطلح الهيبة في اللغة

جاء في مختار الصحاح أن "(الهيبة) من المهابة وهي الإجلال والمخافة. وقد هابه يهابه، والأمر منه هب بفتح الهاء. و (تهيبته) خفته وتهيبني خوفني. ورجل مهوب ومهيب يهابه الناس، ومكان مهوب ومهاب أيضا. والهيوب الجبان الذي يهاب الناس"[(١)]، وعرفها الزبيدي بأنها "التقية من كل شيء، كالمهابة. وقد هابه يهابه، كخافه يخافه"[(٢)]، ومن خلال التعريف اللغوي للهيبة يظهر أن المراد منها الخوف والوجل وقد تستعمل بمعنى التقية من كل شيء.

التعريف الاصطلاحي للهيبة

جاء في كتاب التعرف لمذهب التصوف للكلابازي قوله: "قال ابن عطاء لايكونن همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها"[(٣)]،

---

(١) مختار الصحاح، مادة هـيب، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكـر بـن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) المحقق: يوسف الشيخ محمد، (٣٣٠/١) الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيـروت – صـيدا الطبعـة: الخامسـة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (هيب) المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيـدي (المتـوفى: ١٢٠٥هـ) المحقـق: مجموعة من المحققين، (٤٠٨/٤) الناشر: دار الهداية

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف،الكلاباذي ، صـ١٤٢.

وعرفها الجرجاني "بأن مقتضاها الغيبة"[1]، ومن ثم فهي تستلزم غياب الحواس وحضور القلب وانشغاله بالله وحده دون سواه.

الهيبة عند السادة الصوفية

جاءت الهيبة عند الصوفية بمعنى المعرفة التي لا يشبهها شيء من المعارف؛ لأنها معرفة قائمة على اليقين لا على الظن والتخمين، وهي من أحوالهم التي يأتي بعدها العلم الذي هو نقيض الجهل، ومن ثم يصل العارفون إلى المعرفة التي بسببها يصل الإنسان إلى الهيبة.

يقول الإمام القشيري: "من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته. والمعرفة توجب السكينة في القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازداد معرفته ازدادت سكينته"[2] كما أن وقوع الهيبة لا يتأتي إلا في قلوب الخاشعين المحبين، ولذلك يقول عبد القادر الكيلاني عن عبد الله ابن مسعود "فدخلت الهيبة قلبه، فقام فضرب بالعود على الأرض فكسره،"[3]، وخلاصة القول: إن الهيبة هي:حضور القلب عند الذكر، وأجمل الذكر على الإطلاق قراءة القرآن الكريم وتدبره والوقوف عند أوامره ونواهيه " كما أن أكثر ما تكون الهيبة في أوقات المناجاة، وهو وقت تعلق العبد ربه، وتضرعه بين يديه، واستعطافه، والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه، أو

---

(١) التعريفات، للجرجاني، صـ٢٥٧.

(٢) الرسالة القشيرية، للقشيري، (٢/٤٧٧).

(٣) الغنية لطالبي طريق الحق، (١/٢٦٤)، المؤلف: عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي (المتوفى: ٥٦١ هـ) المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

مناجاته بكلامه، هذا هو مراد القوم بالمناجاة"[١] والذي أميل إليه أن الهيبة هي الخشوع والخضوع لله تعالى عن طريق المناجاة والتضرع لله تعالى بأسمائه وصفاته (ﷻ).

الهيبة عند الإمام الألوسي

والآن ما هو موقف الألوسي من هذا الأمر؟، وما هو قوله فيه؟، والحق أقـول: إن مصطلح الهيبة عنده "بمعنى الغيبة والوقوف على باب العظمة الإلهية جاء ذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: {ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ }"[٢] فقال: "السائحون هم السيارون بقلوبهم في الملكوت الطائرون بأجنحة المحبة في هواء الجبروت، وقد يقال: هم الذين صاموا عن المألوفات حين عاينوا هلال جماله تعالى في هذه النشأة ولا يفطرون حتى يعاينوه مرة أخرى في النشأة الأخرى والراكعون هم العاشقون المنحنون من ثقل أوقار المعرفة على باب العظمة ورؤية الهيبة، والساجدون هم الطالبون لقربه سبحانه"[٣]، ومن هنا فإن الهيبة معناها الوقوف على باب العظمة الإلهية فمن شدة القرب من ربهم تجدهم في حالة الخوف المستمر من هيبة المشهد، وانظر قربك الله منه ومنحك ألطافه كيف أن الشيخ حول لفظ السائحين من كونه سياحة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (٥١٢/١) المؤلف: محمد بن أبـي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتـاب العربـي – بيـروت، الطبعـة: الثالثـة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) سورة التوبة من الآية: ١١٢.

(٣) روح المعاني، للألوسي، (٥١/٦).

في الأرض إلى معنى صوفي جميل؟ إنه سياحة القلب لا سياحة الجسم وفيه ما فيه من لغز صوفي يفقهه أهل الطريق من المريدين، وربك الوهاب ذو المنن.

ولا يقف الشيخ عند هذه التعبيرات الصوفية بل يذهب إلى أبعد من ذلك، انظر إليه وهو يفسر الهيبة فقد يأتي عنده بمعنى سحاب العظمة، جاء ذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: {وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾}[(١)]، يقول الإمام الألوسي (رحمه الله) أي "بماء العلم والمعرفة، وقيل: يرى المحبين برق المكاشفة وينشئ للعارفين سحاب العظمة الثقال بماء الهيبة فيمطر عليهم ما يحييهم به الحياة التي لا تشبهها حياة"[(٢)]، وعليه فإن الحق (سبحانه وتعالى) يجعل للمحبين من أهل طاعته حياة من نوع خاص إنها حياة الخاشعين العاشقين الذين شغفهم وهمهم هو الوصول إلى المحب الذي لا شبيه له ولا مثيل ولا ضد ولا ند له.

وربما فسر الهيبة بتفسير آخر فتأتي الخشية بمعنى الهيبة، فعند "تجلي الصفات في مقام القلب فيشاهدون جلال صفة العظمة ويلزمهم الهيبة والخشية"[(٣)]، وعليه "فسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في حجال الوصال"[(٤)]، وعليه فإن مصطلح الهيبة عند العلامة الألوسي إنما مفادها التجلي الذي يسبب المعرفة الكشفية عند الصوفية التي هي من أعظم أحوالهم، وهكذا نرى الشيخ الألوسي يغرق في تفسير الآيات ملبسا إياها مصطلحات صوفية لا يفهمها إلا أهل الطريق من الواصلين.

---

(١) سورة الرعد من الآية: ١٢.

(٢) روح المعاني، للألوسي، (١٢٩/٧).

(٣) المصدر السابق، (١٦٧/٧).

(٤) المصدر السابق، (١٥٢/٩).

رابعاً: مصطلح الأنس

الأنس في اللغة جاء في المعجم الوسيط أن "(الأنيس) وصف بمعنى الأنس والمؤانس وكل مأنوس به يقال هو أنيسي وجليسي ويقال ما بالدار أنيس"[(١)].

الأنس في الاصطلاح

يقول الكلاباذي: "الأنس إرتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، معنى ارتفاع الحشمة أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف، وسئل ذو النون عن الأنس فقال هو انبساط المحب إلى المحبوب"[(٢)]، وعرفه الغزالي بقوله: "الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته"[(٣)]، وينكشف من خلال التعريفين السابقين أن مصطلح الأنس هو الحب المنعكس على قلوب الأولياء العارفين؛ لأنه صار الحبيب أنيساً لهم في وحشتهم وفي غربتهم.

الأنس عند السادة الصوفية

ما مر هو تعريف الأنس في اللغة وفي الاصطلاح، لكن السادة الصوفيين ذهبوا إلى معنى روحي لا يفهم سواهم أن الأنس هو "الانقطاع عن الدنيا؛ لأنه لا يستوي معه حب الدنيا، وكذا البعد عن كل ما يكون سبباً في البعد عن الله كالفضول عند الناس دون الله، وكذا الظهور والشهرة اللذان يعتبران من موانع الأنس؛ لأن الأنيس يستأنس بمن يحميه ويرفعه ويحفظه ويرعاه، وكل ذلك لا يملكه المخلوق؛ لأنه عاجز عنه، ومن ثم لا يستطيع أن يؤنس من كان في

---

(١) المعجم الوسيط، باب الهمزة، (١/٣٠).

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، صـ١٠٦.

(٣) إحياء علوم الدين، (٤/٣٣٩) المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت.

مرتبته جاء في الرسالة القشيرية "إياك أن تطمع في الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس"[١].

ولقد جاء في كتاب الحكم لابن رجب أن إبراهيم بن أدهم، قال: "أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك، وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك حتى لا ترجو إلا ربك ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتى لا تؤثر عليها شيئا، فإذا كنت كذلك لم تبال في بر كنت، أو في بحر، أو في سهل، أو في جبل، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوق الظمآن إلى الماء البارد، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف"[٢]، وعليه فالإنسان حينما يستأنس بالله فهو لا يرى في الكون إلا أن يشتاق إلى الذي يحميه ويكفيه، ويكون هذا الشوق أشد من شوق العطشان إلى الماء البارد في الصيف، كما يكون هذا الأنس بذكر مولاه الذي لا تحويه الظنون ولا يصفه الواصفون، والأنس بالله أن يكون العبد دائماً مشتاقاً إلى الله مسرعاً إليه يرجو رحمة ربه ويخشى عقابه، وهذا هو الرجاء عند أهل الصفا "من الرجاء الأنس بالله تعالى في الخلوات، ومن الأنس به الأنس بالعلماء والتقرّب من الأولياء، وارتفاع

---

(١) الرسالة القشيرية، للقشيري، (١٣١/١).

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، صـــ ١٣٣، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثـم الدمشـقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هــ) المحقق: شعيب الأرناؤوط – إبـراهيم بـاجس، الناشـر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هــ – ٢٠٠١م.

الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم"[(١)] هذه هي رحلة الأنس عند السادة العارفين بالله تعالى بقي علينا أن نجول ونصول مع شيخنا الألوسي فمع الشيخ في الأنس.

الأنس عند العلامة الألوسي:

جاء مصطلح الأنس عند الإمام الألوسي في مواضع متعددة في كتابه المشهور روح المعاني، فمن المواضع التي ورد فيها هذا المصطلح عند تفسيره لقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم (عليه السلام) حين قال: {لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾}[(٢)].

يقول الألوسي عليه رحمة الله "فيه إشارة إلى أن من لزم جادة الأدب والانكسار ورأى نفسه بعيداً عن ساحة القرب لكمال الاحتقار فهو حقيق أن تدركه رحمة إلهية وتلحقه عناية أزلية تجذبه إلى حظائر القدس وتطلعه على سرائر الأنس فيصير واطئا على بساط الاقتراب فائزا بعز الحضور وسعادة الخطاب. وأيضا أنه لما لم يكن في الحمد مزيد كلفة بخلاف العبادة فإن خطبها عظيم ومن دأب المحب تحمل المشاق العظيمة في حضور المحبوب قرن سبحانه العبادة بما يشعر بحضوره ليأتي بها العابد خالية عن الكلال عارية عن الفتور والملال مقرونة بكمال النشاط موجبة لتمام الانبساط"[(٣)]، وربما توسع في المعنى أكثر وتوغل في المعاني الصوفية مستغرقا في معانيها الطيبة.

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، (١/٣٦٥) المؤلف: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ) المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

(٢) سورة الأنعام من الآية: ٧٦.

(٣) روح المعاني، للألوسي، (١/٩٣).

فجاء الأنس عنده بمعنى (التجلي) وذلك في قول الله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ}[1] والمعنى كما قال العلامة الألوسي: "ويعلم ما كسبتموه بنهار التجلي الجمالي من الأنس أو شوارد العرفان "[2] كما جاء معناه أيضاً بمعنى (المناجاة) وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: { قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ }[3] وذلك؛ "لأن السجن مقام الأنس والخلوة والمناجاة والمشاهدات والمواصلات وفيما يدعونه إليه ما يوجب البعد عن الحضرة والحجاب عن مشاهدة القربة"[4]، وجاء الأنس بمعنى الرجاء والخوف كما قال العلامة الألوسي (رحمه الله) "والرجاء والخوف جناحا من يطير إلى حضرة القدس وروضة الأنس ومن عطل أحدهما تعطل عن الطيران"[5]،ومن هنا فمصطلح الأنس له دلالته الصوفية المعروفة عند أهل التصوف ومن ثم فقد سار الإمام الألوسي على نهجهم ولم يخرج عما وضعوه من دلالات وإشارات؛ لذلك نراه قد غرق معهم في بحار التجليات وفيوضات الأنوار.

---

(١) سورة الأنعام من الآية: ٦٠.
(٢) روح المعاني، للألوسي، (١٨١/٤).
(٣) سورة يوسف من الآية: ٣٣.
(٤) روح المعاني، للألوسي (٧٣/٧).
(٥) المرجع السابق، (١٢٠/٨).

المبحث الثاني

مصطلحات الجمع والفرق والبقاء والفناء كما اعتمدها الإمام الألوسي

أولاً: مصطلح الجمع في اللغة جاء في لسان العرب "استجمع القوم إذا ذهبوا كلهم لم يبق منهم أحد كما يستجمع الوادي بالسيل. وجمع أمره وأجمعه وأجمع عليه: عزم عليه كأنه جمع نفسه له، والأمر مجمع"(١) وجاء في كتاب بصائر التمييز قوله: "الجمع "وهو ضم الشئ بتقريب بعضه من بعض. جمعته فاجتمع"(٢) وعليه فالجمع هو التقريب وعدم التفرقة.

الجمع في الاصطلاح:

عرفه الجرجاني بقوله: "ما سلب عنك، ومعناه أن يكون كسبًا للعبد من إقامة وظائف العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معانٍ وابتداء لطف وإحسان فهو جمع، ولا بد للعبد منهما"(٣)، والمعنى أن الجمع يأتي عن طريق المجاهدة والكسب فإذا أقام العابد عبوديته على الإخلاص واليقين بالله اكتسبه هذا الأمر اللطف من الله تعالى وجمع شتات أمره لا سيما وقد نال العبد شرف العبودية كما قال الكلاباذي "والجمع الذي يعنيه

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، فصل الجيم (٩٣/٨).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (٣٩٠/٢) المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٣) التعريفات، للجرجاني (٧٧).

أهله هو أن يصير ذلك حالا له وهو أن لا تتفرق همومه فيجمعها تكلف العبد بل تجتمع الهموم فتصير بشهود الجامع لها هما واحدا"[(١)].

الجمع عند الصوفية:

الجمع عندهم يفيد تفريج الهم والكرب ويكون ذلك عندما يسمع الإنسان خطاب ربه وينشرح بذلك صدره، يقول القشيري "إذا أصغي بسره إلى ما يناجيه به مولاه واستمع قلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه أو عرفه معناه أو لوح لقلبه وأراه فهو يشاهد الجمع"[(٢)]، والمراد بالجمع عندهم هو"البحر المحيط، الذي هو اللوح المحفوظ جزء منه، ومنه يستفيد العقل الأول، وجميع الملأ الأعلى منه يستمدون، وما ناله أحد من الأمم سوى أولياء هذه الأمة"[(٣)] ومن هنا فالجمع عند السادة الصوفية معناه تفريق الهم والكرب بتدبير الله وحده.

الجمع عند الإمام الألوسي

والإمام الألوسي قدس الله سره يفسر بعض آيات القرآن الكريم بالجمع الصوفي فنجده عند قول الله تعالى: { مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ }[(٤)]، يقول: "يتحقق الجمع في مقام صدق عند المليك المعبود وفوق هذا مقام آخر لا يفي بتقريره الكلام ولا تقدر على تحريره الأقلام بل لا يزيده البيان إلا خفاء ولا يكسبه التقريب إلا

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي، صـــ١١٩.

(٢) الرسالة، للقشيري (١/١٦٦).

(٣) التَّصَوُّفُ.. المنشأ وَالمَصَادر، صـــ١٨٢، المؤلف: إحسان إلهـــي ظهيـــر الباكســـتاني (المتوفى: ١٤٠٧هـــ)، الناشر: إدارة ترجمان السنة، لاهـــور – باكســـتان، الطبعـــة: الأولى، ١٤٠٦هـــ – ١٩٨٦م.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٤.

بعدا واعتلاء"[١] وعليه فالجمع عند الإمام الألوسي رضوان الله عليه يراد به تفريج الهم والكرب وجمع الشمل للإنسان خاصة إذا كان الإنسان متعلقاً بمولاه.

ثانياً: مصطلح البقاء

البقاء في اللغة جاء في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده أن البقاء: ضد الفناء. بقي بقاء وبقي بقيا، وأبقاه، وبقاه، وتبقاه، واستبقاه"[٢] كما أن «الباقي» هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ينتهي إليه، ويعبر عنه بأنه أبدي الوجود"[٣]، وعليه فالبقاء معناه وجود الأوصاف المحمودة التي تعد أثرا يبقى بعد موت الإنسان فهذا هو البقاء المحمود.

البقاء في الاصطلاح:

البقاء في الاصطلاح معناه: "وجود الأوصاف المحمودة"[٤]، فالأوصاف المحمودة التي يكتسبها الإنسان عن طريق المجاهدة والرياضة الصوفية يرقى الصوفي في الدرج حتى يحب البقاء لا من أجل الدنيا الفانية وإنما من أجل لذة المناجاة، ولذلك جاء في كتاب طبقات الصوفية للنيسابوري "من أحب من العقلاء البقاء في الدار الفانية فإنما أحبه للتلذذ بمناجاة سيده والإقبال على الطاعة

---

(١) روح المعاني، للألوسي، (٩٢/١).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، باب القاف، والباء، والياء، لمؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨ هـ] (٥١١/٦) المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ـ الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، (١٤٧/١) المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

(٤) التعريفات، للجرجاني، صـ١٦٩.

بحسب طاقته وأن يكون تحت أمره ونهيه فالعاقل لهذا أحب البقاء وكر الفناء"[(١)] ، فالبقاء يراد به التلذذ بالمناجاة بخلاف الفناء في الملذات والشهوات وحب الدنيا.

البقاء عند الصوفية

السادة الصوفيين يجعلون البقاء من صفاتهم لا سيما وهم أهل رياضة ومجاهدة وزهد وورع كل ذلك ينعكس على المريدين بحب الذكر والتلذذ بالمناجاة التي هي من أحوالهم، والبقاء من مقام النبيين والصالحين ففي كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف "البقاء مقام النبيين ألبسوا السكينة لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله، والباقي هو أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته فيكون فانيا عن المخالفات باقيا في الموافقات"[(٢)] ، فموافقة الحق يعني كون الإنسان يعمل من أجل الحق ونصرته فيكون بذلك باقياً عليه متمسكاً به في جميع الأوقات والأزمان "فالباقي بالحق الفاني عن نفسه يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه ولا لدفع مضرة عنها بل على معنى أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية ولا بمعنى أنه لا يجد حظا فيما يعمل مما لله عليه يفعله لله لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب وهما أعنى الخوف والطمع باقيان معه قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى؛ لأنه رغب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه ولا

---

(١) طبقات الصوفية صـــ(٣٥٤) المؤلف: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (المتوفى: ٤١٢هـــ) المحقق: مصطفى عبـــد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـــ/١٩٩٨م.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي، صـــ١٢٣.

يفعله للذة نفسه ويخاف عقابه إجلالا له وموافقة له؛ لأنه خوف عباده ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه"[١].

درجات البقاء

للبقاء الصوفي درجات ذكرها صاحب كتاب مدارج السالكين حيث قال: "البقاء: وهو على ثلاث درجات: **الأولى:** بقاء المعلوم بعد سقوط العلم عينا لا علما.

والثانية: بقاء المشهود بعد سقوط الشهود وجودا لا نعتا.

والثالثة: بقاء ما لم يزل حقا بإسقاط ما لم يكن محواً"[٢]، وبعد هذه السياحة التي غرقنا فيها مع السادة الصوفية نجد أن الألوسي ما خرج عنهم قيد أنملة من غرق في معاني التصوف من الساس إلى الرأس وهذا ما نراه في الأسطر القادمة.

البقاء عند الإمام الألوسي

والبقاء عند الإمام الألوسي قدس الله سره لا يخرج معناه عما ذكره الصوفية، بل جعله من مقامات العارفين، وكل ذلك لا يحدث إلا عن طريق تهذيب النفس وقمعها عن الشهوات والملذات التي تكون سبباً في البعد عن خالقها جل وعلا، "فمتى أخلدت النفس إلى الأرض واتبعت هواها، وآثرت شهواتها على مولاها، أمرت بقتلها بكسر شهواتها وقلع مشتهياتها؛ ليصح لها البقاء بعد الفناء"[٣]، كما في موضع آخر يفسر الإمام (الألوسي) البقاء بالحكم بين المتخاصمين وذلك فيما جاء في تفسيره لقول الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي صـــ١٢٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم (٣/٣٥٧).

(٣) روح المعاني، للألوسي (١/٢٦٢).

ٱلنَّاسِ}[١] أي "بالإرشاد ولا يكون إلا بعد الفناء والرجوع إلى البقاء فاحكموا بالعدل وهو الإفاضة حسب الاستعداد"[٢]، كما وصف إباحة الصيد بعد التحليل بالبقاء بعد الفناء، حيث قال في تفسير قول الله تعالى: {وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ}[٣] "أي إذا رجعتم إلى البقاء بعد الفناء فلا جناح عليكم في التمتع"[٤].

كما جاء وصف البقاء بعد الفناء حكاية عن سيدنا موسى عندما بلغ الشهود الذاتي وعندئذ تجلي عليه ربه، فلما أفاق رزقه الله حال البقاء بعد الفناء، يقول الألوسي "وهو إشارة إلى أنه بلغ الشهود الذاتي التام في الثلاثين بالسلوك إلى الله تعالى ولم يبق منه شيء بل فني بالكلية وفي العشرة الرابعة كان سلوكه في الله تعالى حتى رزق البقاء بعد الفناء بالإفاقة"[٥].

كما وصف الإمام الألوسي المتاع الحسن في الدنيا باتباع الشريعة بحالة البقاء بعد الفناء، فقال عند تفسير قول الله تعالى: {يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا}[٦] بتوفيقكم لاتباع الشريعة حال البقاء بعد الفناء"[٧]، وجملة القول في البقاء الصوفي عند العلامة الألوسي لا يختلف عن الصوفية في المعنى المراد ومن ثم فالتلذذ" الذي

---

(١) سورة النساء من الآية: ٥٨.

(٢) روح المعاني، للألوسي، (٨١/٣).

(٣) سورة المائدة من الآية: ٢.

(٤) روح المعاني، للألوسي، (٢٤٠/٣).

(٥) المصدر السابق (٥٢/٥).

(٦) سورة هود من الآية: ٣.

(٧) روح المعاني، للألوسي، (٢١٧/٦).

هو صفة العبد ومقامه "[١]، ومن هنا فالبقاء الصوفي هو استغراق العبودية فلا يرى في الوجود إلا الخالق (ﷻ)، وذلك عن طريق السلوك والترقي الأخلاقي واتباع شرع الله ونهجه، وهكذا نرى الألوسي صوفيا خالصا وعابدا متنسكا لربه متقربا إليه جل وعلا.

ثالثاً: مصطلح الفناء الصوفي

تعريفه في اللغة: يقول ابن منظور "الفناء: نقيض البقاء، والفعل فنى يفنى نادر؛ عن كراع، فناء فهو فان"[٢] فالتعريف اللغوي يفيد أن الفناء ضد البقاء وهو محال على الله تعالى

التعريف الاصطلاحي لمصطلح الفناء

يقول الجرجاني: "الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة"[٣] والمعنى أن الفناء يأتي عن طريق المجاهدة الصوفية التي هي من أعظم أعمالهم فلا يقترفون المنكرات التي تبعدهم عن خالقهم، ومن هنا "فعلم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة"[٤]، وعليه فالفناء الصوفي هو الاستغراق في العبادة التي تتضمن الإخلاص الكامل للحق (ﷻ)، وهذا يعني أن الفناء هو "عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق"[٥].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، (٣/٣٥٧).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، فصل الفاء (١٥/١٦٤).

(٣) التعريفات، الجرجاني، صـ١٦٩.

(٤) الرسالة القشيرية، للقشيري، (١/١٣٠)

(٥) التعريفات، الجرجاني، صـ١٦٩.

الفناء عند الصوفية

يقصد بالفناء عند السادة الصوفية "أن يفنى عنه الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فنى به"[١]، ومن هنا فالفناء أن يفنى الإنسان عن الملذات بأن لا يكون له حظ فيها بل و الفناء أيضاً أن لا ينشغل بالأشياء كلية فشغله الشاغل بالحق والوصول إليه، "فمن الفناء فناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصدا وعزما وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصدا وفعلا وفناء عن تعظيم ما سوى الله وبقاء في تعظيم الله تعالى"[٢].

ومن خلال ما سبق يظهر أن الفناء هو عدم الركون إلى الدنيا وعدم الإحساس بالوجود فيها؛ لأنها ليست غاية وليست هدفاً وإنما هي وسيله للعبور لدار البقاء التي لا فناء فيها بل هي دار الخلد، ويؤيد ذلك حديث حارثة ابن زيد (ﷺ) {وقد قال حارِثةُ للشارع (ﷺ) "أَصْبَحْتُ مؤمناً حقًّا! فقال له: إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حقيقةً؛ فما حقيقة إيمانك؟ قال: عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا؛ فاستوى عندي حَجَرها ومَدَرها}[٣]، يقول الكلاباذي معلقاً على هذا الحديث "فنى عن العاجلة

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، صـــ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، صـــ١٢٤.

(٣) أخرجه البزار في مسنده مختصرا ١٣/ ٣٣٣ حديث رقم «٦٩٤٨»، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ١٥٨ رقم «١٠١٠٦» مطولا كلاهما من حديث أنــس بإســناد ضــعيف. يراجع: شعب الإيمان ،المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موســى الخُسْــرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي المتوفى: ٤٥٨هــ، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمــد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشــر والتوزيــع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، و مسند البزار المنشور باسم البحر=

بالآجلة وعن الاغيار بالجبار"[١]، وبعد هذه الجولة الطيبة عند الصوفية نقف الآن على ما قاله الألوسي في هذا الشأن حتى نجد أنه صوفي من الدرجة الأولى.

الفناء عند شهاب الدين الألوسي

الفناء عند الإمام يعنى عدم الركون إلى الدنيا وما فيها فهي إلى زوال، ومن ثم فالفناء فيها هو عدم الإحساس بوجودها في حياة العارفين والمخلصين، وبذلك يعتبر الفناء عنده أعلى مقام للعارفين، يقول الألوسي "إن يوم الدين تلويح إلى مقام الفناء؛ لأنه موت النفس عن شهواتها وخروجها عن جسد تعلقها بالأغيار والتفاتها .... ،فعند ذلك يحصل البقاء في جنة الشهود ويتحقق الجمع في مقام صدق عند المليك المعبود وفوق هذا مقام آخر لا يفي بتقريره الكلام ولا تقدر على تحريره الأقلام بل لا يزيده البيان إلا خفاء ولا يكسبه التقريب إلا بعدا واعتلاء[٢] بهذه العبارات المضيئة يصف الألوسي الفناء في عرف السادة الصوفية وهو على رأسهم.

ثم يبين (رحمه الله) أن في الأحرف المقطعة التي هي في أوائل السور كسورة البقرة مثلاً التي افتتحت بالحروف المقطعة {الٓمٓ}[٣] أسراراً لا يدرك معناها إلا أهل الحقيقة فمن معناها أنها طريق للفناء المطلوب من الإنسان أن يصل إليه، فيقول العلامة الألوسي "في الحروف رمز إلى ثلاثة أشياء فالألف إلى الشريعة

=الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار المتوفى: ٢٩٢هـ، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله،حقق الأجزاء من ١ إلى ٩، وعادل بن سعد حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧ وصبري عبد الخالق الشافعي حقق الجزء ١٨ ،الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ، الطبعة: الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ١٢٤.

(٢) روح المعاني، للألوسي (٩٣/١)

(٣) سورة البقرة، آية: ١.

واللام إلى الطريقة والميم إلى الحقيقة فهناك يكون العبد كالدائرة نهايتها عين بدايتها وهو مقام الفناء في الله تعالى بالكلية"[(١)] إلى هذا الحد يصل الألوسي إلى الإعجاب بطريق الصوفية، فيفسر الحروف المقطعة بهذا التفسير الغريب، لكنه اصطلاح الصوفية الذي لا يفهمه سواهم.

وعلى ذلك يكون العبد في الوصول إلى مقام الفناء من خلال تطبيق الشريعة والوصول إلى الحقيقة. وقد وصف الألوسي (رحمه الله) (الصاعقة) التي أخذت قوم موسى عند طلبهم رؤية الملك جهاراً بأنها تعني مقام الفناء فيقول "فأخذتكم صاعقة الموت– الذي هو الفناء في التجلي الذاتي– وأنتم تراقبون أو تشاهدون– ثم بعثناكم بالحياة الحقيقية والبقاء بعد الفناء لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك في الله"[(٢)]، هكذا يصف غرق اليهود في المادية بأمور صوفية، فهم بعيدون عنها كل البعد.

ثم يبين الإمام الألوسي أن القرب من الله تعالى عن طريق السجود إنما معناه الولوج في مقام الفناء، فعند تفسيره لقول الله تعالى: {وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾}[(٣)] "دلالة على الاقتراب المضمر فيه ؛لأن السجود غاية الذلة والافتقار وهو مظهر الفناء"[(٤)]، ومن هنا فإن الفناء عند الإمام الألوسي القرب من الله تعالى الذي من اقترب منه كان في معيته الخاصة فلا يخاف ولا يخشى إلا الله تعالى وحده.

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٩٣/١).

(٢) المصدر السابق (٢٦٩/١).

(٣) سورة الحجر، من الآية: ٩٨.

(٤) روح المعاني، للألوسي (٣٢٩/٧).

المبحث الثالث

مصطلحات الغيبة والحضور والمحو والإثبات كما اعتمدها الألوسي

مصطلح الغيبة في اللغة: جاء في المعجم الوسيط أن "(الغيبة) هي البعد والتواري يقال أوحشتني غيبة فلان وقد أطلت غيبتك"[(١)]، وهذا يعني أن معناها التواري والخفاء وعدم الظهور.

أولاً: الغيبة في الاصطلاح

عرفها شارح المواقف بقوله "الغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، بل من أحوال نفسه بما يرد عليه من الحق، إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة، فهو حاضر بالحق غائب عن نفسه وعن الخلق، ومما يشهد على هذا قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين شاهدن يوسف، فإذا كانت مشاهدة جمال يوسف مثل هذا فكيف يكون مشاهدة أنوار ذي الجلال"[(٢)]، ومن هنا فمصطلح الغيبة يفيد غياب القلب عن الخلق وانشغاله بالخالق، فالإنسان حاضر بجسده لكن القلب حاضر مع الله تعالى لا ينشغل بمن سواه.

الغيبة عند السادة الصوفية

إذا كان مصطلح الغيبة كما رأينا في التعريف الاصطلاحي، فإن السادة الصوفية قد ذهبوا به إلى معنى خاص بهم وعليه فمصطلح الغيبة عندهم من المصطلحات المهمة وذلك؛ لأنه يتعلق بالقلب الذي هو مناط الحياة الروحية للإنسان الصوفي، يقول الكلابازي" فمعنى الغيبة أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا

---

(١) المعجم الوسيط، باب الغين (٦٦٧/٢).

(٢) التعريفات، للجرجاني (٢٦٣).

يراها وهى أعنى الحظوظ قائمة معه موجودة فيه غير أنه عنها بشهود ما للحق[١]، فلا يرى الدنيا أمامه وأمام شهواته الفانية وكذا ملذاته بل كل ذلك عنه ومعنى ذلك، كما يقول الكلاباذي "أن يأخذ ما يأخذ بحال العبودية وخضوع البشرية لا للذة والشهوة وغيبة أخرى وراء هذه، وهى أن يغيب عن الفناء والفاني بشهود البقاء والباقي لا غير كما أخبر حارثة عن نفسه ويكون الشهود شهود عيان ويكون غيبته عما غاب غيبة شهود الضر والنفع لا غيبة استتار واحتجاب"[٢]، ومعنى ذلك أن العبد يغيب عن الخلق من أجل الحق وبهذا يرقى الإنسان في الدرجات حتى يصل إلى مقام الشهود، والغيبة من الدعوات التي دعا الله تعالى الخلق إليها "دعاهم من دار التكليف إلى دار التشريف، من دار الغيبة إلى دار المشاهدة، ومن دار الزوال إلى دار النوال، ومن دار البلوى إلى دار المولى، دعاهم من دار أولها بكاء ووسطها عناء وآخرها فناء إلى دار أولها عطاء ووسطها رضاء وآخرها لقاء"[٣]، وعلى ذلك فالغيبة تفيد غياب الإنسان عن الملذات والشهوات أو جميع حظوظ النفس والإقبال على الله تعالى وحده دون سواه، وبعد هذه الجولة الطيبة مع السادة الصوفية نذهب إلى شيخنا لنرى أنه قد ذهب إلى ذلك، أو ما هو أبعد غارقا في بحار التصوف.

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص١١٨.

(٢) الرسالة، للقشيري، صـــــ٢٩٠.

(٣) الغنية لطالبي طريق الحق(ﷺ)، (٤٩/٢)، المؤلف: عبد القادر بن موسى بن عبد الله بـــن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الـــدين الجيلانـــي، أو الكيلانـــي، أو الجيلـــي (المتوفى: ٥٦١هـــ) المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الناشـــر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هــ – ١٩٩٧م.

الغيبة عند الإمام الألوسي

ذكر العلامة الألوسي (الغيبة) في تفسيره (روح المعاني)؛ للدلالة على غياب الإنسان عن الخلق ومشاهدة مقام الحق (ﷻ)، وقد ورد هذا عند تفسيره لقول الله تعالى: {ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ}(١) "الغيب مشاهدة الكل بعين الحق فقد يمنح العبد قرب النوافل فيكون الحق سبحانه بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به ويرقى من ذلك إلى قرب الفرائض فيكون نورا فهناك يكون الغيب له شهودا والمفقود لدينا عنده موجودا"(٢)، وعليه، فقرب العبد من ربه للدلالة على مشاهدة العبد الكل بعين الحقيقة التي لا يدخلها شك، ومن هنا فالإنسان التقي الذي يخشى الله ويتقيه حق تقواه، نجد معية الله تعالى الخاصة تحفه، ولذلك فإنه عند تفسيره لقول الله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ }(٣) قال: "إن الله مع الذين اتقوا بقاياهم وفنوا فيه سبحانه والذين هم محسنون بشهود الوحدة في الكثرة وهؤلاء الذين لا يحجبهم الفرق عن الجمع ولا الجمع عن الفرق ويسعهم مراعاة الحق والخلق"(٤)

ومن خلال ما سبق نجد أن مصطلح الغيبة معناه أن أهل الحق يشاهدون الحق وذلك عند وقوفهم بين يدي الله تعالى و إخلاصهم النية لله تعالى وحده دون سواه وهذا هو مقام الإحسان كما قال الرسول (ﷺ): ((الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))(٥)، وقد ذكر الطيبي في حاشيته

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٣.

(٢) روح المعاني، للألوسي (١١٧/١).

(٣) سورة النحل، من الآية: ١٢٨.

(٤) روح المعاني، للألوسي (٤٩٥/٧).

(٥) أخرجه البخاري، باب سؤال جبريل النبي (ﷺ)، ح (٥٠) ج(١٩/١) و أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم (٩ و ١٠) وأخرجه عن عمر (رضي الله عنه) في الباب نفسه رقم (٨).

أن "الإحسان بمنزلة السير والسلوك في الأحوال والمقامات إلى أن ينتهي إلى محو الوهم والوصول إلى مخدع الإنسان"(١)، ولذلك يقول الجنيد "لا يرتقي أحد في درجات العبودية حتى يحكم فيما بينه وبين الله تعالى أوائل البدايات وهي الفروض والواجبات والسنن والأوراد، ومطايا الفضل عزائم الأمور فمن أحكم على نفسه هذا مَنَّ الله تعالى عليه بما بعده"(٢).

ثانياً: مصطلح الحضور

الحضور في اللغة: جاء في لسان العرب أن" الحضور: نقيض المغيب والغيبة؛ حضر يحضر حضورا وحضارة؛ وكلمته بحضرة فلان وبمحضر منه أي بمشهد منه"(٣)، وفي معجم مقاييس اللغة أن "(حضر) الحاء والضاد والراء إيراد الشيء، ووروده ومشاهدته"(٤) وبناء على ما سبق فإن الحضور يعني المشاهدة وهو على نقيض المغيب.

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)(٢٣١/٩) المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣هـ) مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٢) روح المعاني، للألوسي (١٦٧/٧).

(٣) لسان العرب، لابن منظور/فصل الحاء المهملة (٤ /١٩٦).

(٤) معجم مقاييس اللغة مادة (حضر)، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، (١٧٥/٢) الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الحضور في الاصطلاح

الحضور في الاصطلاح: **عرفه الطوسي بقوله: "حضور القلب لما غاب عن** عيانه بصفاء اليقين فهو كالحاضر عنده وإن كان غائباً عنه"(١) أو "هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصير الحكم الغيبي له مثل الحكم العيني"(٢)، ومن خلال التعريفين السابقين لمصطلح الحضور الصوفي يظهر أن مفادهما هو حضور القلب مع الله تعالى، وهو أعلى درجة من اليقين بأنواعه المعروفة، وإذا كان لمصطلح الحضور الصوفي مكانة عند الصوفية فنجدهم قد اهتموا به في كتاباتهم ومؤلفاتهم، كما سنراه في الكلمات الآتية.

الحضور عند الصوفية ومكانته

للحضور مكانة بارزة عند السادة الصوفية لا سيما في أنه يتعلق بالقلب الذي هو مناط حياة الإنسان الروحية، فالإمام القشيري أحد أعلام التصوف يقول " وأما الحضور فقد يكون حاضرا بالحق؛ لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق على معني أنه يكون كأنه حاضر وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه تعالى فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة"(٣)، وعليه فحضور القلب وغيابه عن الخلق من أهم الأمور التي يحتاجها السالك في طريقه إلى الوصول إلى الله تعالى كما أن "تعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع:

---

(١) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي، (٤١٦/٢) تحقيق و تخريج: الدكتور عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مكتبة المتنبي ببغداد، ط ١٩٦٠م.

(٢) موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص: ٢٩١، دكتور: رفيق العجم، مكتبة لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م.

(٣) الرسالة القشيرية، للقشيري (١٧٤/١).

تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها وتعطل"[١].

ولهذا فإن حضور القلب إنما هو أكبر شاهد على حال أهل الطريقة، فهم ينسون الدنيا وما فيها بل ينسون أجسادهم لانشغالهم بعمارة القلب بمحبة الله، "فإن الحضور مع الله يوجب أنسا ومحبة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورثاه خروجا عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينيه"[٢].

بل إن حضور القلب مع الله والأنس به وكذا الغياب عن الخلق يسمى شوقاً إلى المنعم؛ لأنه "حال من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة ومعاينة الأوصاف من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف، وفي هذا المقام الحزن، والانكسار، والأنس، حال من القرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة، ففي هذا المقام السرور والاستبشار"[٣].

<u>الحضور عند العلامة الألوسي</u>

من المعلوم أن القلب هو الذي عليه مدار الإيمان من عدمه ومن ثم، "فهو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والأعضاء إلى المقصود"[٤]، والعلامة الألوسي (رحمه الله) قد استخدم هذا المصطلح في تفسيره (روح المعاني) للإشارة إلى أن هذا المصطلح يهتم بالقلب الذي عليه مدار حال

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (٥٢٣/١).

(٢) المصدر السابق (٥٢٣/١).

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي (١٠٤/٢).

(٤) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣٦٧/٤).

الإنسان ومآله، فالمقصود بالحضور عنده يعني (التوكل) جاء ذلك في قول الله تعالى حكاية عن قوم موسى في دخلوهم الأرض المقدسة حيث يقول القرآن {وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾}(١) فسر التوكل "بالحقيقة وهو الإيمان عن حضور، وأقل درجاته تجلي الأفعال"(٢).

وقد جاء الحضور بمعنى (البصير) وذلك في قول الله تعالى: {مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ}(٣) "البصير هو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين وصفاته بعين اليقين وذاته بحق اليقين فالغائبات له حضور والمستورات له كشف (وَالسَّمِيعِ) من يسمع من دواعي العلم شرعا، ثم من خواطر التعريف قدرا، ثم يكاشف بخطاب من الحق سرا، وقيل: (السَّمِيعِ) من لا يسمع إلا كلام حبيبه، والْبَصِيرِ من لا يشاهد إلا أنواره فهو في ضيائها ليلا ونهارا"(٤)، ومن هنا فالبصير المذكور في الآية يراد به الحضور، فأفعال السالكين كلها إما أن تكون قائمة على علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين، ولا يتحقق ذلك إلا لمن صفت نفسه وقلبه لله تعالى.

ومن معاني الحضور الصوفي أيضاً ــ عند الألوسي عمارة القلب في الوقوف بين يدي الله عن طريق الصلاة التي هي مناجاة العبد مع خالقه ¸ فيقول "عند تفسير قول الله تعالى: {إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ}(٥) فلقد

(١) سورة المائدة من الآية: ٢٣.

(٢) روح المعاني، للألوسي (٣/٢٩٣).

(٣) سورة هود، من الآية: ٢٤.

(٤) روح المعاني، للألوسي (٣/٢٩٣).

(٥) سورة العنكبوت، من الآية: ٤٥.

"ذكر أن حقيقة الصلاة حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر، فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر، هذا في الصلاة وبعدها تنهى هي إذا كانت صلاة حقيقية وهي التي انكشف فيها لصاحبها جمال الجبروت وجلال الملكوت وقرت عيناه بمشاهدة أنوار الحق (ﷻ)"[(١)].

ثالثاً: مصطلح المحو الصوفي

المحو في اللغة جاء في لسان العرب "محا الشيء يمحوه ويمحاه محوا ومحيا: أذهب أثره. والمحو لكل شيء يذهب أثره، تقول: أنا أمحوه وأمحاه، وطيء تقول محيته محيا ومحوا. وأمحى الشيء يمحي أمحاء، انفعل، وكذلك امتحى إذا ذهب أثره"[(٢)]، ومن هنا فالمحو ذهاب أثر الشيء وعدم رؤيته.

تعريفه في الاصطلاح

جاء في كتاب التعريفات للجرجاني أن المحو: رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله، وتحصل منع أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها، كالسكر من الخمر[(٣)]، وعليه فالمحو توقف العادة وحصول الأفعال التي تأتي بعيدة عن مناط العقل.

المحو عند الصوفية

يراد بالمحو الغفلة ومعناه: أن يمحو الإنسان عن نفسه كل ما كان عائقاً في طريقه من الغفلة والعلل التي تعترض في طريقه، وينقسم عند هم إلى "محو الزلة عن الظواهر، ومحو الغفلة عن الضمائر ومحو العلة عن السرائر، ففي

---

(١) روح المعاني، للألوسي (١٦/١١).
(٢) لسان العرب لابن منظور، فصل الميم، (٢٧١/١٥).
(٣) التعريفات، للجرجاني (٢٠٥/١).

محو الزلة إثبات المعاملات، وفي محو الغفلة إثبات المنازلات، وفي محو العلة إثبات المواصلات، هذا محو وإثبات بشرط العبودية، وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران عن القدرة، فالمحو ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة"[١]، فالمحو الصوفي يراد به محو الغفلة والوهم وكل ما كان سبباً في بُعد السالك عن طريق الحقيقة، فالظواهر التي تحجب الصوفي عن الوصول يقوم بمنع أثرها ومحوها ويستبدل مكانها حسن المعاملة، وكذا إثبات الوصول إلى المحبوب من أقرب طريق وهذا يدل على مقام المحو.

منازل المحو الصوفي

ومنازل المحو معناها:أن يقوم الصوفي بمحو الأفعال التي يظن أنها فعل للعبد والعبد منها براء، وبالتالي فالأفعال كلها مستندة للفاعل المختار ابتداء وبلا واسطة، وكذا محو الصفات؛ لأن الصفات إنما هي عوارض للإنسان تزول ولا تبقى فمثلها كمثل الهبة و العارية بطلب صاحبها لها، فإن المستعير والموهوب يقطمها حين الطلب ولا يتأخر وكذا محو الذات، فالذات الإنسانية ليس لها أثر إنما الأثر الحقيقي للذات الإلهية المنفردة بالخلق والإيجاد وحدها وذلك عن طريقي الإرادة المخصصة للممكنات، وكذا القدرة المبرزة من العدم إلى الوجود أومن الوجود إلى العدم بالنسبة للممكنات، ومن هنا فإن منازل المحو هي:

"**أولها:** محو الأفعال في فعل الحق تعالى. فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا.

والثاني: محو الصفات التي في العبد. فيراها عارية أعيرها، وهبة وهبها. ليستدل بها على بارئه وفاطره، وعلى وحدانيته وصفاته. فيعلم بواسطة حياته:

(١) الرسالة، للقشيري (١/١٨٠).

معنى حياة ربه، وبواسطة علمه وقدرته وإرادته، وسمعه وبصره، وكلامه وغضبه ورضاه .

والثالث: محو الذات. وهو شهود تفرد الحق تعالى بالوجود أزلا وأبدا. وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. ووجود كل ما سواه قائم به وأثر صنعه. فوجوده هو الوجود الواجب الحق، الثابت لنفسه أزلا وأبدا. وأنه المتفرد بذلك"[(١)] ،ومن هنا فمنازل المحو قد يكون مختصاً بالفعل وقد يكون مختصاً بالذات، فالله تعالى هو المتصرف في الوجود بالعلم الشامل والإرادة والقدرة وكذا السمع والبصر ووجود الممكنات إنما هو أثر من آثار الصنعة الإلهية.

المحو عند الإمام الألوسي

الإمام الألوسي عليه سحائب الرضوان قد فسر المحو الصوفي (بالإخلاص الكامل)، وهو ما يسمى عند السادة الصوفية بمقام الإحسان وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: {**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ...}(٢)، فقال عن إسلام الوجه" من خلص ذاته من جميع لوازمها وعوارضها لله تعالى بالتوحيد الذاتي عند المحو الكلي وهو مستقيم في أحواله بالبقاء بعد الفناء مشاهد ربه في أعماله راجع من الشهود الذاتي إلى مقام الإحسان الصفاتي الذي هو المشاهدة للوجود الحقاني"[(٣)] ، ويوضح لما هذا المعتقد عند السادة الصوفية، ويشرحه أكمل شرح ابن قيم الجوزية في كتابه (القيم)، فعنده أن السالك في طريقه إلى الله تعالى يشاهد ربه في أفعاله وصفاته وفي ذاته وذلك عن طريق المحو الكلي "وهذا

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (٣/٣٥ – ٣٦).

(٢) سورة البقرة من الآية: ١١٢.

(٣) روح المعاني، للألوسي (١/٣٦١).

المحو يصح باعتبارين، أحدهما: باعتبار الوجود الذاتي ولا ريب في إثبات محوه بهذا الاعتبار إذ ليس مع الله موجود بذاته سواه، وكل ما سواه فموجود بإيجاده سبحانه، والاعتبار الثاني: المحو في المشهد. فلا يشهد فاعلا غير الحق سبحانه. ولا صفات غير صفاته، ولا موجود سواه، لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره"[١]، فالفاعل الحق هو الله وحده، فالكل في قبضته لا ينفك واحد من المخلوقات عن قدرته وإرادته جل وعلا، كما فسر الإمام المحو بالمشاهدة التي يشهدها الله لنفسه وكذا ملائكته وأولوا العلم بأنه لا إله إلا هو فقال سبحانه: { شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ }[٢].

يقول الإمام الألوسي: "أي "شهادة الملائكة من رؤية الأفعال وشهادة أولي العلم من رؤية الصفات، وقيل: شهادة الملائكة من رؤية العظمة ولذا يغلب عليهم الخوف، وشهادة العلماء من رؤية الجمال ولذا يغلب عليهم الرجاء وشهادة العلماء متفاوتة فشهادة بعض من الحالات، وشهادة آخرين من المقامات، وشهادة طائفة من المكاشفات، وشهادة فرقة من المشاهدات وخواص أهل العلم يشهدون به له بنعت إدراك القدم وبروز نور التوحيد من جمال الوحدانية، فشهادتهم مستغرقة في شهادة الحق لأنهم في محل المحو"[٣]، ونخلص من كل ما سبق أن المحو يراد به شهادة أهل الحق للحق عن طريق الاستغراق الذي يفيد شمول الحكم لكل الأفراد، وهذا المشهد لا يكون إلا بمشاهدة رؤية الجمال الإلهي، وكل ذلك عن طريق ترك العلائق الدنيوية

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/٣٦).

(٢) سورة آل عمران من الآية: ١٨.

(٣) روح المعاني، للألوسي (٢/١١٥).

ومحوها وعدم الالتفات لها؛ لأنها صغائر وعوائق للسالكين إلى ربهم (ﷻ)، وبعد أن انتهينا من بيان رأي الألوسي في المحو، ننتقل إلى مصطلح الإثبات.

رابعاً: مصطلح الإثبات الصوفي

الإثبات في اللغة جاء في لسان العرب" ثبت الشيء يثبت ثباتا وثبوتا فهو ثابت وثبيت وثبت، وأثبته هو، وثبته بمعنى. وشيء ثبت: ثابت. ويقال للجراد إذا رز أذنابه ليبيض: ثبت وأثبت وثبت. ويقال: ثبت فلان في المكان يثبت ثبوتا، فهو ثابت إذا أقام به. وأثبته السقم إذا لم يفارقه. وثبته عن الأمر كثبطه."[١] والمعنى المستفاد من التعريف اللغوي إنما مفاده ثبوت الشيء وعدم تحريكه بأي حركة كانت.

تعريف الإثبات في الاصطلاح جاء في موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي "أن الثاء يشار بها إلى ثواب الدارين وإلى أول ما تعلق في الأزل من اللطف والإحسان والجزاء والكرم وهو في المرتبة الثانية والثبات فهو شدة النفس وبعدها من الخور"[٢]، وعليه فالإثبات هو اللطف الخفي الذي يدركه أهل الحق وذلك لثباتهم على الطريقة التي فيها مجاهدة النفس وبعدها عن الملذات والشهوات كبعد الماء من الأرض المرتفعة.

الإثبات عند السادة الصوفية

الإثبات نقيض المحو وهو صادر عن القدرة الإلهية وذلك؛ لأنه من جملة الممكنات التي تتعلق بها القدرة ويقبل الوجود والعدم في عرف المتكلمين، وهما صادران عن المشيئة لا عن الوجوب القائل به الفلاسفة، وإنما هو من محض فضله وتحت مشيئته وإرادته (ﷻ).

(١) لسان العرب، فصل الثاء المثلثة، لابن منظور (١٩/٢).

(٢) موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، صـ٢٤٠.

يقول الإمام القشيري: "وَأَمَّا حقيقة المحو والإثبات فصادران عَنِ القدرة فالمحو مَا ستره الحق ونفاه، والإثبات مَا أظهره الحق وأبداه والمحو والإثبات مقصوران عَلَى المشيئة قَالَ اللَّه تَعَالَى: {يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ}[1] قيل: يمحو عَن قلوب العارفين ذكر غَيْر اللَّه تَعَالَى ويثبت عَلَى ألسنة المريدين ذكر اللَّه ومحو الحق لكل أحد وإثباته عَلَى مَا يليق بحاله ومن محاه الحق سبحانه عَن مشاهدة أثبته بحق حقه"[2]، فالله يثبت الذكر على السنة المريدين ويبعد عنهم أو يمحو عنهم كل ما يعوق طريقهم فالسالك إلى الله يرده إلى طريق الحق ويثبته عليه "ومن محاه الحق عن إثباته به رده إلى شهود الأغيار وأثبته في أودية التفرقة"[3] هذا هو الإثبات عند السادة الصوفية، فما هو الإثبات عند الإمام الألوسي؟، وما مدى الاتفاق أو الاختلاف عنهم؟

الإثبات عند الإمام الألوسي.

الإثبات صادر عن القدرة الإلهية، ومن ثم فالإثبات عنده يفيد استقرار علوم الباطن في القلوب ومحو ما عداها من الأغيار التي تزعزع القلوب وتبعدها عن مولاها، فالإمام الألوسي عند تفسيره لقول الله تعالى: {يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ}[4] أي "يمحو عن ألواح العقول صور الأفكار ويثبت فيها أنوار الأذكار ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان ويثبت فيها لدنيات علم العرفان، وقيل: يمحو العارفين بكشف جلاله ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله، وقال ابن عطاء: يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم؛ لأنها موضع المشاهدة، وقيل: يمحو ما

(١) سورة الرعد من الآية: ٣٩.

(٢) الرسالة، للقشيري (١/١٨٠).

(٣) نفس المصدر السابق (١/١٨١).

(٤) سورة الرعد من الآية: ٣٩.

يشاء عن الألواح الجزئية التي هي النفوس السماوية من النقوش الثابتة فيها فيعدم عن المواد ويفني ويثبت ما يشاء فيها فيوجد"[1].

وهكذا نرى أن الإمام الألوسي قد استخدم الإثبات بمعنى ثبات الأسرار في القلوب لأهل الحق بخلاف أهل الغفلة، وعليه فهو يفسر الكلمة الطيبة بحياة القلوب وعمارتها بذكر الله وهذا هو الثبات في الدنيا وفي الآخرة ثبات عليها في القبر "جاء ذلك في قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً}[2]، حيث فسر الكلمة الطيبة بلباسها الصوفي، وليس بلباسها الظاهر لنا.

فقال (رحمه الله) "الكلمة الطيبة النفس الطيبة أصلها ثابت بالاطمئنان، وثبات الاعتقاد بالبرهان وفرعها في سماء الروح تؤتي أكلها من ثمرات المعارف والحكم والحقائق كل وقت بتسهيله والقول الثابت قوله سبحانه وحكمه الأزلي أي يثبتهم على ما فيه تبجيلهم وتوقيرهم في الدارين حيث حكم بذلك في الأزل وحكمه سبحانه الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل"[3].

ومن هنا فإن الإثبات عند الإمام الألوسي قدس الله سره يعني ثبات القلوب عند الوجل وعدم زعزعتها عما جبلت عليه من الفطرة السليمة والاعتقاد السليم؛ لأنه (سبحانه وتعالى) أنارها بتوفيقه لها وثباتها من قبل الحضرة الإلهية على بساط التوحيد فلا تخلو القلوب منه فهو ساكن فيها بعلمه وعونه وتوفيقه وتأييده وتدبيره لاسيما وقد خلت من الأغيار والأمراض المنفرة، وبالتالي فهي مطمئنة بربها وراضية عنه.

---

(١) روح المعاني، للألوسي (١١٥/٢).

(٢) سورة إبراهيم من الآية: ٢٤.

(٣) روح المعاني، للألوسي (٢١٨/٧).

المبحث الرابع
مصطلحات التجلي والتكوين والتمكين والقرب والبعد كما اعتبرها الإمام الألوسي

أولاً: مصطلح التجلّي:

التجلِّي في اللغة جاء في المعجم الوسيط "أن (تجلى) الشيء تجليا مطاوع جلاه، والصقر أغمض عينيه ثم فتحهما ليكون أبصر، والشيء نظر إليه مشرفا، و(الأجلى) الحسن الوجه "[(١)]، وعليه فالتجلي معناه ظهور الشيء وانجلاؤه وهذا التجلي وصف من أوصاف السادة الصوفية. ويقصد به كشف الحجب.

التجلِّي: في الاصطلاح

عرفه الجرجاني بقوله: "ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جمع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي، فإن لكل اسم إلهي بحسب حيطته ووجوهه تجليات متنوعة"[(٢)] ،وبناء عليه فالتجلي معناه انكشاف المعلوم عن طريق البصيرة وجلاؤها وصفاؤها ورؤيتها للأشياء رأي العين وهذا لا يتم إلا عن طريق المجاهدة التي تنقل العارفين من الموت إلى الحياة التي يترتب عليها سعادة المرء في الدنيا، وعلى ذلك فالصوفي قد "أحياه الله تعالى بنور الفراسة وجعل له نور التجلي والمشاهدة لا يكون كمن يمشى بين أهل الغفلة غافلا، وقيل: إذا صحت الفراسة ارتقى صاحبها إلى المشاهدة"[(٣)] .

---

(١) المعجم الوسيط، باب الجيم (١٢٢/١).

(٢) التعريفات، للجرجاني، (٥١/١).

(٣) الرسالة، القشيرية، للقشيري (٣٩٥/٢).

التجلي عند الصوفية

يطلق مصطلح التجلي عند السادة الصوفية على "رفع حجبة البشرية لا أن تتلون ذات الحق جل وعز عن ذلك وعلا، والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب، ومعنى رفع حجبة البشرية أن يكون الله تعالى يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب؛ لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب"[(١)]؛ ولأن الغيب ليس مكشوفاً للبشر؛ لأنه لو انكشف لهم لسقط التكليف عنهم، وعلى ذلك فإن مقام التجلي يكون لأهل الحقيقة "فهو الظهور من غير تشبيه ولا تكييف"[(٢)]، وعليه ظهور الباريء (ﷻ) دون كيفية؛ لأن ذلك يستلزم الجسمية وهي محالة في حقه تعالى.

مراتب التجلي

يرى الصوفية أن التجلي ينحصر في مراتب ثلاث "فإنه في أول الأمر يتجلى بأفعاله وآياته، وفي وسط الأمر يتجلى بصفاته، وفي آخر الأمر يتجلى بذاته"[(٣)]، فتجلي الذات يقصد به المكاشفة وهي "كشوف القلب في الدنيا"[(٤)].

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي (١.٢٢/١)

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٧٦/٣) المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ).

(٣) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) (٢٤٣/١) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي (١٢١/١).

وهذا الكشف يوضحه ابن بطال (رَحِمَهُ اللَّهُ) **حيث قال:** إن "ابن عمر حين خطب إليه عروة بن الزبير ابنته فى الطواف، فلم يرد عليه كلاما، فلما جاء إلى المدينة لقيه عروة فقال له ابن عمر: (أدركتني فى الطواف ونحن نتراءى الله بين أعيننا، فذاك الذي منعنى أن أرد عليك، ثم زوجه"(١)، ومعنى قوله تجلى صفات الذات وهي موضع النور هو أن تتجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره وكفايته له فلا يرجو سواه"(٢).

وعليه فمراتب التجلي إما تجلي الذات وهذا أعظم مراتب التجلي، وهي الكشف الصوفي الذي يدل على سعة رحمة الله تعالى بعباده، وذلك التجلي يكون "بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة"(٣)، وتجلي في الصفات بأن يظهر الله تعالى آثار قدرته في أفعاله التي لا تعلل بالأغراض ويجليها للعارفين من خلقه فلا يخشون إلا الله وحده هذا عند السادة الصوفية، لكن الألوسي يوسع في الأمر ويتوسع في الشرح والتنويع فإلى ما أراد شرحه نقول وبالله التوفيق.

---

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال، (٣٠١/٤) المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩ هـ) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي (١٢١/١).

(٣) المنقذ من الضلال، صـ١١٥، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود، الناشر: دار الكتب الحديثة، مصر.

التجلي عند الإمام الألوسي

الإمام الألوسي (رحمه الله) يقسم التجلي إلى أقسام عدة "فالتجلي باسمه تعالى الله للجوهر الملكي: {أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾}(١) وباسم الرب للنفس الشيطانية: {رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾}(٢) وباسم الرحمن للنفس السبعية بناء على أنه مركب من لطف وقهر: { ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ أَضَلَّنِي}(٣) وباسم الرحيم للنفس البهيمية: {أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ عَلَيْكُمْ}(٤) و{بمالك يوم الدين} للبدن الكثيف: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ يَمَعْشَرَ}(٥).

وآثار هذا التجلي طاعة الأبدان بالعبادة وطاعة النفس الشيطانية بطلب الاستعانة والسبعية بطلب الهداية والبهيمية بطلب الاستقامة، وتواضعت الروح القدسية فعرضت لطلب إيصالها إلى الأرواح العالية المطهرة وأيضا دعائم الإسلام خمس فالشهادة من أنوار تجلي الله والصلاة من أنوار تجلي الرب وإيتاء الزكاة من أنوار تجلي الرحمن وصيام رمضان من أنوار تجلي الرحيم والحج من أنوار تجلي مالك يوم الدين"(٦) ، هكذا نرى تجلي التفسير الصوفي في كلام الألوسي (رحمه الله)، ويظهر من كلام الشيخ عليه سحائب الرحمات أنه يعطي للتجلي مكانة عظيمة من بين المصطلحات الصوفية، وذلك؛ لأن دلالة هذا المصطلح قائمة على التخلية التي يعقبها التحلية، فالصوفي حينما يتخلي عن

---

(١) سورة الرعد من الآية: ٢٨

(٢) سورة المؤمنون من الآية: ٩٧.

(٣) سورة الفرقان من الآية: ٢٦.

(٤) سورة المائدة من الآية: ٥.

(٥) سورة الرحمن آية: ٣١.

(٦) روح المعاني، للألوسي (٨٩/١).

عوارض الجسد أو الجوهر، فإن الحق يتجلى على روحه أو على قلبه، فيظهر الصوفي بمظهر أنوار التجلي والتي تتجلي في أركان الإسلام الخمس المعروفة، ومن هنا فالتجلي لا يكون إلا لخواص الخواص من أهل (الحقيقة)، ومن ثم فهم يعيشون لله ولا يخافون إلا الله تعالى، وقد تجسد هذا التجلي على بعض الأجسام فكانت النتيجة أن صعق نبي الله موسى (عليه السلام) من تجلي المتجلي على المتجلى عليه، إنها الروح الصوفية البادية بكل وضوح في كل كلمة يقولها الألوسي رضوان الله عليه، لكن كيف تتجلى الصفات عنده؟ هذا ما سنراه الآن.

تجلي الصفات عند الإمام الألوسي

من التجلي الذي حدث بالفعل ويسمى بتجلي صفات الأفعال تجلى الله تعالى على الجبل، وذلك عند ما طلب سيدنا موسى رؤيا ربه، وكان هذا على سبيل الشوق الصوفي، يقول الإمام الألوسي "وكان التكليم في مقام تجلي الصفات وكان السؤال عن إفراط شوق منه (عليه السلام) إلى شهود الذات في مقام فناء الصفات مع وجود البقية، {قَالَ لَن تَرَىٰنِى} إشارة إلى استحالة الأثنينية وبقاء الإنية في مقام المشاهدة، وهذا معنى قول من قال: رأيت ربي بعين ربي، وقوله سبحانه: {وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ} إشارة إلى جبل الوجود، أي انظر إلى جبل وجودك {فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى} وهو من باب التعليق بالمحال عنده {فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا} أي متلاشيا لا وجود له {وَخَرَّ مُوسَىٰ}عن درجة الوجد صَعِقاً أي فانيا فَلَمَّا أَفاقَ بالوجود الموهوب الحقاني{قَالَ سُبْحَٰنَكَ} أن تكون مرئيا لغيرك {تُبْتُ إِلَيْكَ تَتَبَّعْ} عن ذنب البقية، أو رجعت إليك بحسب العلم والمشاهدة إذ ليس في الوجود سواك"[1].

(١) روح المعاني، للألوسي (٥٣/٥).

وهذا التجلي يعرف عند السادة الصوفية بالشوق؛ لأن تجلى الأفعال لا يشاهدها إلا أهل الحقيقية من الصوفية، يقول الكلاباذي " وأنشدنا لبعض الكبار...

سرائر الحق لا تبدو لمحتجب أخفاه عنك فلا تعرض مخيفه

لا تعن نفسك فيما لست تدركه حاشا الحقيقة أن تبدو فتؤويه[١]

وعليه، فالتجلي محجوب عن أهل الغفلة، أما الصوفية فهم قد كشفت لهم الحجب، وذلك عن طريق الصفا الذي هو أشهر أوصافهم ونعتهم المعروف أنهم يريدون الحقيقة، ومعرفتها هي الغاية من حياتهم، فهم في ستر من الله تعالى وحفظ؛ ولأن الستر يكون للعوام بينما التجلي يكون لأهل الحقيقة، ولقد نظم مولانا أبي الفيض محمد ابن عبد الكبير الكتاني (رحمه الله) في ديوانه المعروف بيتين عن الستر فقال:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أعمى لا يبصر القمرا

ثم استنارت على الأبصار بأحمدا وكيف يعرف من بالعزة استترا[٢]

ثانياً: مصطلح التكوين

التكوين في اللغة: جاء في معجم اللغة العربية المعاصر أن "التكوين عند المتكلمين إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود"[٣] وجاء التكوين في المعاجم

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي (١/١٢١).

(٢) ديوان الكتاني في المعارف والمدح والفنون، الشيخ/ أبي الفيض محمد ابن عبد الكريم الكتاني، جمع وتحقيق د/ إسماعيل المساوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان،ص٢٠٢

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة (خلق) (١٩٧٣/٣) المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

العربية بمعنى "تركيب الشيء بالتأليف بين أجزائه، كما ورد بمعنى إيجاد الشيء من العدم إلى الوجود، وهذه المعاني هي نفس معنى الإنشاء"[(١)]، ومن خلال التعريفين السابقين لمدلول التكوين نجد أنه يدل على الإخراج أي إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، وهو صفة من صفات المعاني عند السادة الماتريدية..

التكوين في الاصطلاح

يقول الجرجاني "التكوين: إيجاد شيء مسبوق بالمادة"[(٢)]، وعليه فلابد من وجود مادة سابقة على العدم هذا ما يفيده تعريف السيد الشريف (رحمه الله).

التكوين عند السادة الصوفية

السادة الصوفية يقصدون بمصطلح "التكوين صفة أهل الحقائق فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين؛ لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مرحل ويحصل في مربع فإذا وصل تمكن"[(٣)]، وعليه فالتمكين والتكوين عند الصوفية معناهما الانتقال من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومن نعت إلى نعت حتى يصير الصوفي قد تلون وخرج من إنسانيته إلى ما يسمى بالتكوين أي الوصول إلى حقيقة الحقائق وهي مشاهدة الوجود وهو هدف أهل الحقيقة، هذا بخلاف القائلين بوحدة الوجود، كابن عربي وغيره بما يعرف بشطحات الصوفية الذين يجعلون وجود الخالق والمخلوق شيئاً

---

(١) معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، (٢٥٣/١) المؤلف: الدكتور أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(٢) التعريفات، للجرجاني (٦٥).

(٣) الرسالة، للقشيري (١٨٩/١).

واحداً، يقول الإمام القشيري "وصاحب التمكين وصل ثم اتصل وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية من كليته بطل، وقال بعض المشايخ انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا"[(١)]. ومن هنا فالصوفي يتلون حتى يتمكن وبالتالي يصل إلى ما يطلبه في التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود.

التكوين عند الإمام الألوسي

الإمام الألوسي كما هو معروف أشعري المذهب فيذهب إلى ما ذهب إليه السادة الماتريدية الذين يثبتون صفة التكوين ويخالفون الأشاعرة في هذه المسألة، فالإمام الألوسي يثبت هذه الصفة ويجعلها صفة تبرز من العدم إلى الوجود، ولكن بشرط وجود مادة سابقة على هذا الوجود.

ففي قول الله تعالى: {فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ}[(٢)]، يقول الألوسي "أي مظهر أنوار صفاته على صفحات آفاق مخلوقاته أو شاق ظلمة الإصباح بنور الإصباح وذلك؛ لأن بحر العدم كان مملوءا من الظلمة فشقه بأن أجرى فيه جدولا من نوره حتى بلغ السيل الربى، وقال الإمام فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والإيجاد وفالق ظلمة الجمادية بصباح الحياة والعقل والرشاد وفالق ظلمة الجهالة بصباح الإدراك وفالق ظلمة العالم الجسماني بتخليص النفس القدسية إلى فسحة عالم الأفلاك وفالق ظلمة الاشتغال بعالم الممكنات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبر المحدثات والمبدعات"[(٣)].

(١) الرسالة، للقشيري (١/١٨٩).

(٢) سورة الأنعام من الآية: ٩٦.

(٣) روح المعاني، للألوسي (٤/٢٤٢).

فالإمام الألوسي جعل الفلق بمعنى الإبداع الذي تفيده كلمة (فالق) بمعنى تكوين الحياة في الجمادات، والنور في عالم الممكنات وهو من أقوى دلائل قدرته التي تتعلق بالممكنات، وظهور نوره في الآفاق دليل على تكوينه وأمره الذي بين الكاف والنون.

وفي قول الله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٱلْقُرْءَانَ}[(١)]، يقول الشيخ (رحمه الله): "فإن كل حادث من الأعراض والجواهر له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه ولعل حال المعدوم معلوم بالدلالة إذا قلنا: إن الشيء هو الموجود والمراد بالعندية الحضور العلمي بل العلم الحضوري على ما قيل، فإن تحقق الأشياء في أنفسها في أي مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم بالنسبة إليه تعالى"[(٢)]، ومن هنا فالتكوين له مراتب، وكل مرتبة لها وقت معين وحكمة معينة لا يعلمها إلا علام الغيوب، وكل ذلك في علمه المكنون

أسرار التكوين عند الإمام الألوسي

وتظهر أسرار التكوين الصوفي عند الإمام الألوسي في أن له أسراراً لا يعرفها ولا يدرك معناها إلا أهل الحقيقة، ويظهر ذلك في قول الله تعالى: {مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ}[(٣)]، يقول قدس الله سره "{ما أشهدتهم خلق}ذلك وما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بخصائص لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون فلا تلتفت إلى

(١) سورة القمر آية: ٤٩.
(٢) روح المعاني، للألوسي (١٠٤/٧).
(٣) سورة الكهف من الآية: ٥١.

قولهم طمعا في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد لديني بالمضلين"[١]، ومن هنا يتبين أن أسرار التكوين تظهر في عدم اطلاع العامة عليها لكن أهل الحقيقة يدركون معناها.

ثالثاً: مصطلح التمكين:

التمكين في اللغة: جاء في المعجم الوسيط أن "**(مكن)** فلان عند الناس مكانة عظم عندهم فهو مكين (ج) مكناء، وفي التنزيل العزيز {**قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾**}[٢] **(أمكنه)** من الشيء جعل له عليه سلطانا وقدرة والأمر فلانا سهل عليه وتيسر له ويقال فلان لا يمكنه النهوض لا يقدر عليه **(مكن)** له في الشيء جعل له عليه سلطانا"[٣]، فالتمكين معناه تيسير الأمور وجعل للإنسان السلطة والسيادة والاستقرار.

التمكين في الاصطلاح:

يراد بالتمكين بأنه "مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تمكين؛ لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين"[٤]، والمراد بالتمكين انتقال الإنسان من وصف إلى وصف أعلى وأنقى منه بحيث يتمكن الإنسان للوصول إلى مقام الرضا، وهو أعلى ما يصل إليه أهل الحقيقة.

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٢٨١/٨).

(٢) سورة يوسف من الآية: ٥٤.

(٣) المعجم الوسيط، باب الميم (٨٨١/٢).

(٤) التعريفات، للجرجاني (٦٦/١).

التمكين عند الصوفية

التمكين عند السادة الصوفية معناه: أن ينتقل الإنسان من طور إلى طور أو من وصف إلى وصف أعظم منه، وذلك عن طريق المجاهدات الروحية التي جاء ذكرها في قول الله تعالى: {وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ}[١] "أي الذين زيّنوا ظواهرهم بالمجاهدات حسنت سرائرهم بالمشاهدات الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات"[٢]، فهم دائماً وأبداً في تعب من أجل الوصول إلى مرضاة الله تعالى فيستحقون بذلك التمكين.

يقول الإمام القشيري (رحمه الله)**:** "واعلم أن التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين: إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه، والسكون من صاحبه لأحد أمرين: إما لقوته أو لضعف الوارد عليه"[٣]، وهذه التغيرات التي وصفها الإمام القشيري إنما تعني الانتقال من الضعف الجسماني والمعنوي إلى القوة الروحية التي يحس الإنسان من خلالها بالسعادة الأبدية، ومن هنا." فالسالكون ضربان: سالكون على الحال، ملتفتون إلى العلم. وهم إلى التمكن أقرب، وسالكون على العلم. ملتفتون إلى الحال. وهم إلى التلون أقرب"[٤].

---

(١) سورة العنكبوت، من الآية: ٦٩.

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١٠٦/٣) المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ــ الطبعة: الثالثة.

(٣) سورة العنكبوت من الآية: ٦٩.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم (١٢٩/٣).

والتمكن لن يأتي للصوفي إلا إذا دخل دائرة الابتلاء التي اختص الله بها الأنبياء، والصالحين من عباده، فإذا خرج من امتحانه مكنه الله "قال الإمام الشافعي (رحمه الله) التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكن"[١].

التمكين عند الإمام الألوسي

عرفه بقوله: "أصل التمكين أن يجعل الشيء مكانا يتمكن فيه"[٢]، والإمام الألوسي (رحمه الله) يستخدم مصطلح (التمكين) بالدخول إلى الأماكن الآمنة الطيبة كدخول البيت الحرام، ومنى وعرفات وغيرها من الأماكن المحببة إلى الخالق (تعالى)، فالإمام عند تفسيره قول الله تعالى: {**وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ**}[٣] "كانَ آمِناً من غوائل نفسه؛ لأنه مقام التمكين"[٤].

وفي قوله تعالى: {**كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ**}[٥] "إشارة إلى رحمة الله تعالى التي تنقل السالكين من بحار الظلمة إلى نور الكرامة فيقول عند تفسيره للآية الكريمة إن في الآية "بشارة بحصول الكرامة عقيب تلك السلامة، أما السلامة فبالنجاة من بحر عالم الظلمات ومركز الجسمانيات ومعدن الآفات والمخافات وموضع التغيرات والتبدلات، وأما الكرامة فبالوصول إلى الباقيات الصالحات والمجردات القدسيات والوصول إلى فسحة عالم الأنوار والترقي إلى معارج سرادقات الجلال"[٦]، وللألوسي كلام حسن في هذا المعنى نتناوله فيما

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢٦/١).

(٢) روح المعاني، للألوسي (٢٥٤/١٠).

(٣) سورة آل عمران من الآية: ٩٧.

(٤) روح المعاني، للألوسي (٢٤٦/٢).

(٥) سورة الأنعام من الآية: (٥٤).

(٦) روح المعاني، للألوسي (١٥٩/٤).

يأتي جله تسطع علينا أنواره، ونشاهد من تجلياته، قال شيخنا الألوسي في هذا المعنى "وكل هذا لا يتم إلا عن طريق الصبر "والصبر عن الله تعالى هو لأهل العيان والمشاهدة من العشاق المشتاقين المتقلبين في أطوار التجلي والاستتار المنخلعين عن الناسوت المتنورين بنور اللاهوت ما بقي لهم قلب ولا وصف كلما لاح لهم نور من سبحات أنوار الجمال احترقوا وتفانوا وكلما ضرب لهم حجاب ورد وجودهم تشويقا وتعظيما ذاقوا من ألم الشوق وحرقة الفرقة ما عيل به صبرهم وتحقق موتهم، والصبر بالله تعالى هو لأهل التمكين في مقام الاستقامة الذين أفناهم الله تعالى بالكلية"(١)، وعليه فالتمكين لن يكون للصوفي إلا إذا مر بمراحل متعددة وكل مرحلة إنما هي بمثابة امتحان حتى يرقى ويتمكن وهذا هو المطلوب.

والتمكين في الأرض إشارة إلى جعل الإنسان يطبق حدود الله وفرائضه المعروفة ولذلك أشار الألوسي إلى مقام التمكين عند تفسيره لقول الله تعالى {ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ}(٢) "فيه إشارة إلى حال أهل التمكين وأنهم مهديون هادون فلا شطح عندهم ولا يضل أحد بكلماتهم"(٣)، وخلاصة القول فيما سبق :أن التمكين الصوفي أن يسير الإنسان على الطريق وفق مراد الله تعالى وذلك بعد الابتلاء والاختبار اللذين هما موضع قبول العبد عند ربه بعد تحلية العبد بالصبر وتخليه عن كل ما يغضبه ويكون سبباً في البعد عن مولاه، وهذا ما أشار إليه الإمام الألوسي (رحمه الله) في تفسيره المشهور، كما رأينا سابقا بالتفصيل والتوضيح.

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٧/٤٩٥).

(٢) سورة الحج من الآية: ٤١.

(٣) روح المعاني، للألوسي (٩/٢٠١).

رابعا: مصطلح القرب

القرب في اللغة جاء في لسان العرب أن "القرب نقيض البعد قرب الشيء، بالضم، يقرب قربا وقربانا وقربانا أي دنا، فهو قريب"[(١)]، ويقال (تقرب) إليه حاول القرب منه وتوسل إليه بقربة أو بحق ويقال تقرب إلى الله بالأعمال الصالحة"[(٢)]، والقرب عبادة يتقرب بها الصوفي إلى الله تعالى.

القرب في الاصطلاح

"هو القيام بالطاعة. وقد يطلق القرب على حقيقة "قاب قوسين"– وهو قدر الخط الذي يقسم قطري الدائرة، فيشقها بقسمين. وهو غاية القرب المشهود، ولا يدركه إلا صاحب"إثبات"لا صاحب "محو"[(٣)]، ومن هنا، فالقرب لا يدكه إلا من تحلي بالإثبات الذي ينفي كل الثغرات التي تعرقل طريقه ويثبت على طريقة أهل الحق، وقد عرفه الجرجاني بقوله " هو قرب العبد من الله تعالى بكل ما تعطيه السعادة، لا قرب الحق من العبد، فإنه من حيث دلالة: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}[(٤)] قرب عام، سواء أكان العبد سعيدًا أم شقيًا"[(٥)]، وعلى ذلك فالقرب من الله تعالى هو الإحساس بالسعادة واللذة الأبدية التي يدكها المشتاقون من أهل الطريقة، ومن ثم، فالقرب هنا لا يقصد به القرب الذاتي، ولا المكاني اللذين يستلزما الجسمية المحالة على الله تعالى.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، فصل القاف (٦٦٢/١).

(٢) المعجم الوسيط (٧٢٣/٢).

(٣) الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي (٢١٦/١٣) طبعة الهيئة المصرية للكتاب.

(٤) سورة الحديد من الآية: ٤.

(٥) التعريفات، للجرجاني (١٧٤/١).

القرب عند الصوفية

يقصد بالقرب عند السادة الصوفية الطاعة التي تستلزم الرضا والقبول، وكذا القرب من الله تعالى الذي يشمل الإنسان بعفوه وكرمه ولطفه؛ لذلك نجد الكلاباذي (رحمه الله) يقول " سئل سرى السقطي عن القرب فقال هو الطاعة وقال غيره القرب أن يتدلل عليه ويتذلل له لقوله ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[(١)]، فالقرب "هو أن نشاهد أفعاله بك معناه أن ترى صنائعه ومننه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك وأخرى أن لا تراك فاعلا لقوله للنبي (ﷺ) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾[(٢)] وانشدونا للنودى.

أراني جمعي في فنائي تقربا	**وهيهات إلا منك عنك التقرب**
فما عنك لي صبر ولا فيك حيلة	**ولا منك لي بد ولا عنك مهرب**
تقرب قوم بالرجا فوصلتهم	**فما لي بعيدا منك والكل يعطب[(٣)]**

فالقرب الصوفي يأتي بعد المجاهدات التي يعتنقها العباد في التحلي بالفضائل والبعد عن الرذائل التي تكون سبباً في البعد عن الله تعالى "أول رتبة في القرب هي "القرب من طاعته والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته"[(٤)]، والقرب يعد باباً من أبواب الفتح الإلهي الذي يمنحه الله تعالى لأهل محبته؛ وذلك عن طريق الانتقال من حال الذكر إلى حال القرب، "قال الخراز: إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجلس الأنس به ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب

---

(١) سورة العلق، من الآية: ١٩.

(٢) سورة الأنفال من الآية: ١٧.

(٣) التعرف على مذهب التصوف، الكلاباذي (١٠٧/١) بتصرف يسير.

(٤) الرسالة، القشيري (١٩٢/١).

وأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هوى فحينئذ صار العبد زمنا فانيا فوقع في حفظه سبحانه وبرئ من دعاوي نفسه"[١]، فإذا دخل العبد دار الفردانية اشتاق لرؤية ربه من شدة الأنس ونسي نفسه التي بين جنبيه، فهو يحاربها فمثلها كمثل العبد عند سيده لا يخالف أمره، فهو يحاربها، وكذا شيطانه، وبالتالي يصير عبداً ربانياً يتنعم بمقام القرب الإلهي، وشيخنا الألوسي كعادته لا ينسى أن يذكرنا بهذا المقام السامي فلنستمع إليه.

مصطلح القرب عند الإمام الألوسي:

نرى الإمام الألوسي قدس الله سره قد استخدم مصطلح القرب الصوفي بمعان كلها تتفق مع الاتجاه الصوفي الصحيح، فعند تفسيره لقول الله تعالى: {**فَإِنِّي قَرِيبٌ**}[٢]، فسر القرب بأنه "حقيقة في القرب المكاني المنزه عنه تعالى فهو استعارة لعلمه تعالى بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على سائر أحوالهم"[٣]؛ ولأنه الحق (سبحانه وتعالى) قد تعالى عن الجهة والمكان وذلك لما يترتب عليهما من الجسمية المحالة عليه تعالى، فقد فسر الإمام الألوسي عدم هداية الله لبعض الناس بعدم قربهم منه جل شأنه وبعدهم عنه، وهذا إن دل فإنما يدل على انحراف الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، فقال شيخنا في قول الله تعالى: {**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا**}[٤] "استبعاد لهداية من فطره الله على غير استعداد المعرفة، وحكم عليه بالكفر في سابق الأزل فإن من لم يكن له استعداد لم يقع

---

(١) الرسالة، للقشيري (٤١٩/٢).

(٢) سورة البقرة من الآية: ١٨٦.

(٣) روح المعاني، للألوسي (٤٦٠/١).

(٤) سورة آل عمران من الآية: ٨٦.

في أنوار التجلي، ومن خاض في بحر القهر ولزم قعر بعد البعد لم يكن له سبيل إلى ساحل قرب القرب"(١).

وفسر القرب أيضاً بدوام المشاهدة، وذلك عند تفسيره لقول الحق سبحانه: {وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}(٢) "فعلل ذلك الرجاء بقوله ؛" لأنكم ترجون التنعم بجنة القرب والمشاهدة، ولا يخطر ذلك لهم ببال، أو تخافون القطيعة وهم لا يخافونها"(٣).

وفسر القرب (رحمه الله) أيضاً يتنزل الرحمات والبركات، وذلك حينما يقوم أهل الكتاب بتطبيق شرائع التوراة التي أنزلها الله على أنبيائهم، فقال شيخنا عند تفسير قول الله تعالى: {لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم}(٤)، "فأهل الكتاب يستحقون ذلك؛ "لأنهم إذا أقاموا العمل بكتاب الله سبحانه استنزل ذلك من فوقهم البركات، فإذا استجدوا العمل لتلك البركات المنزلة وقاموا عليها بثبات أقدامهم الراسخة استنزل ذلك لهم من الله ۦ بركات هي أزكى من الأولى، فلا يزال العلم والعمل يتناوبان إلى أن ينتهي السالك إلى مقام القرب ومنازل العارفين، وفي ذكر الأرجل إشارة إلى حصول ثبات القدم ورسوخ العلم، وفي اقترانها مع تحت دلالة على مزيد الثبات وأنهم من الراسخين المقتبسين علومهم من مشكاة النبوة دون المتزلزلين الذين أخذوا علومهم من الأوهام، ولذا كتب بعض العارفين بهذه الآية إلى الإمام إرشادا له إلى معرفة طريق أهل الله عز شأنه"(٥)

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٢/٢١٣).

(٢) سورة النساء من الآية: ١٠٤.

(٣) روح المعاني، للألوسي (٣/١٥١).

(٤) سورة المائدة من الآية: ٦٦.

(٥) روح المعاني، للألوسي (٣/٤٥٤).

ومن هنا فالألوسي (رحمه الله) قد وضح أن تطبيق شرائع الله تعد أقرب المراحل للقرب منه تعالى، وقد وضح أن إيمان القلوب وحياتها تسمى مشهداً من مشاهد القرب من الله وحده فقال عند تفسير قول الله تعالى: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}[1] "فأحييناه بروح المشاهدات أو ميتا بشهوات النفس فأحييناه بصفاء القلب أو ميتا برؤية الثواب فأحييناه برؤية المآب إلى الوهاب وجعلنا له نور الفراسة أو الإرشاد، وقال ابن عطاء: أومن كان ميتا بحياة نفسه وموت قلبه فأحييناه بإماتة نفسه وحياة قلبه وسهلنا عليه سبل التوفيق وكحلناه بأنوار القرب فلا يرى غيرنا ولا يلتفت إلى سوانا"[2].

ومن هنا فالقرب الحقيقي يعتبر هو الحياة الحقيقية التي يصل إليها المشتاقون من أهل الحقيقة، وقد فسر ذلك الإمام الألوسي بأن المراد بموات القلب إتباع الهوى فأحياه الله تعالى بالحياة الطيبة على سبيل التوفيق الإلهي فلا يرى غير مولاه.

خامساً: مصطلح البعد:

البعد في اللغة: يقول ابن منظور "البعد: خلاف القرب. بعد الرجل، بالضم، وبعد، بالكسر، بعدا وبعدا، فهو بعيد وبعاد"[3]، والبعد هو ضد القرب ويقصد به البعد عن الله تعالى.

تعريف البعد في الاصطلاح:

يراد بالبعد في الاصطلاح بأنه "ضد القرب، وهو عبارة عن بعد العبد عن المكاشفة والمشاهدة، ويجيء في لفظ القرب، وفي عرف العلماء هو امتداد بين

---

(١) سورة الأنعام من الآية: ١٢٢.

(٢) روح المعاني، للألوسي (٤/٢٦٨).

(٣) لسان العرب، لابن منظور، فصل الباء الموحدة (٣/٨٩).

الشيئين لا أقصر منه، أي لا يوجد بينهما أقصر من ذلك الامتداد، سواء وجد مساويا لذلك الامتداد كما في بعد المركز من المحيط، أو زائدا عليه كما في غيره"[(١)].

مصطلح البعد عند الصوفية

السادة الصوفية يستخدمون هذا المصطلح من أجل أن يكون عنوانهم البعد التام عن كل ما ينقص من حالهم وشأنهم مع ربهم، يقول القشيري". وأما البعد فهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته فأول البعد بعد عن التوفيق ثم بعد عن التحقيق بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق"[(٢)]، وعليه فالبعد هو المخالفة التي يتدنس بها العبد، وبالتالي هو بعيد عن الله تعالى وعن طاعته وأقرب إلى المعاصي التي تكون سبباً في ظلام القلب والبغض في قلوب الخلق، وكذا الضيق في الرزق، ومن هنا فمصطلح البعد الصوفي يراد به بعد العبد عن كل ما يغضب الله تعالى سواء أكان صغيراً أم كبيراً خاصة الصغائر التي يستهين بها بعض الناس، فالصوفي بعيد عنها كل البعد.

ومعنى ذلك أن العبد كلما كان بعيدا عن شوائب المعصية التي من آثارها بعده عن التوفيق والتحقيق كان إلى الله أقرب وإلى طاعته أسرع، حتى يصل إلى ما يسمى بمقام القرب الإلهي الذي لا يحظى به إلا العارفون من أهل الحقيقة، بخلاف أولئك الذين اختاروا البعد عن الله تعالى وتقلبوا في المعاصي

---

(١) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٣٤٠/١) المؤلف: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م.

(٢) الرسالة، للقشيري (١٩٢/١).

فهم في أشد الخسران في الدنيا وفي الآخرة "وهم فى الآخرة محجوبون، وبذلّ البعد موسومون"[١]، "وهذا حال المحتجين بالقدر على الذنوب، فإنهم خصماء الله (ﷻ) وهم مع الشياطين والنفوس على الله، وهذا غاية البعد والطرد والانقطاع عن الله"[٢]، ومن ثم فالذنوب والمعاصي تعتبر حجاباً مانعاً للعبد عن القرب من الله، وبسببها " يتعرض لسخط الله ويستحق البعد عن جواره [٣].

ولذلك فإن من آثار البعد الكسل عن الطاعة والبعد عن الجد والاجتهاد في جميع الأوقات " وكان الأستاذ أبو علي الدقاق (رحمه الله) يقول: "إن أصحاب الكسل عن عبادته هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان فاختار لهم البعد عنه وأخرهم عن محل القرب ولذلك تأخروا وفي معناه **أيضا** قالوا:

سقيم ليس يعاد ومريد لا يراد[٤]

وفي كتاب معارج القدس للغزالي قوله:

وهل حسرة في النفس أعظم من البعد عن أهل ودار وجيرة

كما أنه لا شيء أعظم لذة لذي غربة من ملتقى بعد فرقة

كأني لم أحجب بها وكأنما هي احتجبت بي فازدهى الناس عشقتي[٥]

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/٣٢٣).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (١/٢٧٧).

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي (١/٦٤).

(٤) الرسالة، للقشيري (٢/٤١١).

(٥) معارج القدس في مدراج معرفة النفس، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) (١/١٩٥) الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٩٧٥م.

وجملة القول: إن البعد الصوفي إنما هو شعار أهل التصوف فيقفون عند الرذائل أو المعاصي فيجعلون بينهم وبينها حجاباً مستوراً لا يبصرونها ولا يسمعون عنها، و قد جاء في كتاب حلية الأولياء للأصفهاني قوله: "إن الله أجاع الخلق فطلبوا من البعد فمنعهم إياه من القرب "[(١)]

البعد عند الإمام الألوسي

الإمام الألوسي قدس الله سره قد استخدم هذا المصطلح في مواضع متعددة، وكلها تصب في معين واحد، فتدل على البعد عن المعاصي التي تكون حجاباً في القرب من الحق (ﷻ) فعند تفسيره لقول الله تعالى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}[(٢)]، "فسر الاستهزاء- بقوله "وهم المستهزأ بهم ولبعد منزلتهم في الشر وسوء الحال أشار إليهم بما يدل على البعد"[(٣)]، ومن هنا فالإمام الألوسي في هذه الإشارة السابقة يشير إلى أن المنافقين لخبث فعلهم استحقوا البعد عن الله تعالى و هذا بأخبث المنازل وفي قول الله تعالى: {فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ}[(٤)]، يقول الألوسي "وفي التعبير- بالتلقي- إيماء إلى أن آدم (عليه السلام) كان في ذلك الوقت في مقام البعد"[(٥)].

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠ هـ) (١٠/١٩٨) الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٢) سورة البقرة من الآية: ١٥.

(٣) روح المعاني للألوسي (١/١٦٣).

(٤) سورة البقرة من الآية: ٣٧.

(٥) روح المعاني للألوسي (١/٢٣٨).

وقد بين (رحمه الله) تعالى عند تفسير قول الله تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ} [1] أن الفئة المؤمنة تقاتل في سبيل الله مؤيدة بجند من جنود الله تعالى، فهي في معيته الخاصة بالحفظ والنصر، بينما الفئة الكافرة التي آثرت الهوى والنفس والشيطان عن رضا ربها فهي محجوبة منه وبعيدة كل البعد عنه، وإلى هذا يقول الإمام (رحمه الله) ""قد كان لكم يا معشر السالكين إلى مقصد الكل آية دالة على كمالكم وبلوغكم إلى ذروة التوحيد في فئتين التقتا للحرب فئة منهما وهي فئة القوى الروحانية التي هي جند الله تعالى تقاتل في سبيل الله وطريق الوصول إليه وأخرى منهما وهي جنود النفس وأعوان الشيطان كافرة ساترة للحق محجوبة عن حظائر الصدق ترى الفئة الأخيرة الفئة الأولى لحول عين بصيرتها مثليهم عند الالتقاء في معركة البدن رؤية مكشوفة ظاهرة لا خفاء فيها مثل رؤية العين، وذلك لتأييد الفئة المؤمنة بالأنوار الإلهية والإشراقات الجبروتية، وخذلان الفئة الكافرة بما استولى عليها من تراكم ظلمات الطبيعة وذل البعد عن الحضرة والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء تأييده لقبول استعداده لذلك إن في ذلك التأييد لعبرة أي اعتبارا أو أمرا يعتبر به في الوصول إلى حيث المأمول للمستبصرين الفاتحين أعين بصائرهم لمشاهدة الأنوار الأزلية في آفاق المظاهر الإلهية" [2]، ومن هنا فإن الفئة الباغية هي التي تستحق اللوم والعتاب، لأنها محجوبة عن رؤية الحق ومشاهدة آثارة التي تدل على وحدانيته تعالى.

---

(١) سورة آل عمران من الآية: ١٣.

(٢) روح المعاني للألوسي (٣/٩٩).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فقد يسر لي وأعانني على إتمام هذا البحث وإكماله، وقد بذلت فيه جهدي وطاقتي وأوجز في هذه الخاتمة أهم النتائج توصلت إليها من خلال المباحث التي تضمنها البحث المعنون بـــ (**المصطلحات الصوفية ومدى تطبيقاتها في تفسير روح المعاني للإمام الألوسي(المتوفى: ١٢٧٠هــ) دراسة تحليلية**)، وتتمثل هذه النتائج فيما يلي:

أولاً: النتائج:

١- اتضح من خلال الدراسة أن المصطلح الصوفي له مكانة في الفكر الصوفي، تظهر في استخدام هذا المصطلح لدى علماء الصوفية على وجه الخصوص، مما يضفي للمصطلح المكانة الكبيرة عند أصحاب هذا الفن.

٢- ظهر من خلال الدراسة مكانة الإمام الألوسي(المتوفى: ١٢٧٠ هــ) من بين سائر المفسرين في أنه أشعري المذهب ماتريدي مقر بصفة التكوين صوفي بحت، يستخدم تلك المصطلحات في تفسيره المشهور؛ للدلالة على مكانة المصطلح الصوفي وفهم معاني التصوف الحقيقي فهماً صحيحا بعيداً عن شطحات المتصوفة.

٣- تبين من خلال الدراسة أن المصطلحات التي استخدمها الإمام الألوسي مطابقة تمام المطابقة لما ذكره رجال الصوفية الأوائل كالإمام الطوسي، وصاحب الرسالة القشيرية، وكذا الإمام الكلاباذي، وابن عجيبة، والشيخ زروق، والغزالي وغيرهم من أعلام التصوف الإسلامي.

٤- برز من خلال الدراسة الاهتمام بالجانب الصوفي لدى المفسرين الذين نحوا مذهب السادة الأشاعرة والماتريدية واستخراج تلك المصطلحات على النحو الصحيح حتى يكون القارئ على بينة من أمره.

٥- ظهر من خلال الدراسة المحافظة على التراث الصوفي من يد العابثين والمارقين كالسلفية المعاصرة والوهابية اللتين يحاربان هذا العلم دون معرفة ما يبني عليه هذا العلم من الاهتمام بالجانب الروحي والقلبي، مما يجعل الإنسان تصفو بنفسه وروحه لله تعالى دون إهمال الجانب المادي.

{وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾} (١)

وصلّ اللهم وسلم وبارك على أفضل أنبيائك ورسلك سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وأصحابه أجمعين

(١) سورة هود من الآية: ٨٨.

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

١. إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٢. أعلام العراق، كتاب تاريخي أدبي انتقادي، يتضمن سيرة الإمام الألوسي الكبير، تصنيف/ محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، سنة ١٣٤٥هـ.

٣. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ): دار العلم للملايين ـ الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢م.

٤. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

٥. تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

٦. التَّصَوُّفُ..المنشَأ وَالمَصَادر، المؤلف: إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفى: ١٤٠٧هـ)، الناشر: إدارة ترجمان السنة، لاهور – باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٧. التعرف لمذهب أهل التصوف، المؤلف: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (المتوفى: ٣٨٠هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٨. التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
٩. التعليم والإرشاد، تأليف السيد محمد بدر الدين الحلبي، الدبعة الأولى، ١٣٢٤هـ، ١٩٠٦م.
١٠. التفسير والمفسرون، المؤلف: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.
١١. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) المحقق: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
١٢. جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، المؤلف: نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الآلوسي (المتوفى: ١٣١٧هـ) قدم له: علي السيد صبح المدني، الناشر: مطبعة المدني، عام النشر: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
١٣. الجواهر الحسان في تفسير القرآن المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ).

١٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١٥. ديوان الكتاني في المعارف والمدح والفنون، الشيخ أبي الفيض محمد ابن عبد الكريم الكتاني، جمع وتحقيق د. إسماعيل المساوي، دار الكتب العلمية ــ بيروت، لبنان..

١٦. الرسالة القشيرية، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف الناشر: دار المعارف، القاهرة.

١٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١٨. سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ) المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٩. شرح صحيح البخاري لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٠. طبقات الصوفية المؤلف: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (المتوفى: ٤١٢هـ)

المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢١. الغنية لطالبي طريق الحق المؤلف: عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي (المتوفى: ٥٦١هـ) المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٢. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣هـ) مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٢٣. الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي طبعة الهيئة المصرية للكتاب.

٢٤. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، المؤلف: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ) المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

٢٥. لسان العرب، فصل القاف، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

٢٦. لطائف الإشارات = تفسير القشيري المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ــ الطبعة: الثالثة.

٢٧. اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي تحقيق وتخريج: الدكتور عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مكتبة المتنبي ببغداد، ط ١٩٦٠م.

٢٨. المحكم والمحيط الأعظم، لمؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨ هـ] المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ــ الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٩. مختار الصحاح، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣١. المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، الدكتور / عوض الله حجازي، دار الطباعة المحمدية، ط: ٦.

٣٢. معارج القدس في مدراج معرفة النفس، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت ــ الطبعة: الثانية، ١٩٧٥م.

٣٣. معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، المؤلف: الدكتور أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
٣٤. معجم اللغة العربية المعاصرة، المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
٣٥. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المؤلف: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر.
٣٦. المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
٣٧. معجم مقاييس اللغة المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٣٨. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.
٣٩. المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.
٤٠. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) المحقق: بسام عبد

الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي – قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٤١. المنقذ من الضلال، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود، الناشر: دار الكتب الحديثة، مصر.

٤٢. الموسوعة القرآنية، المؤلف: إبراهيم بن إسماعيل الإبياري (المتوفى: ١٤١٤هـ) الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥هـ.

٤٣. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر

٤٤. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم المؤلف: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م.

٤٥. موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، دكتور: رفيق العجم، مكتبة لبنان / الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م.

٤٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

فهرس الموضوعات



